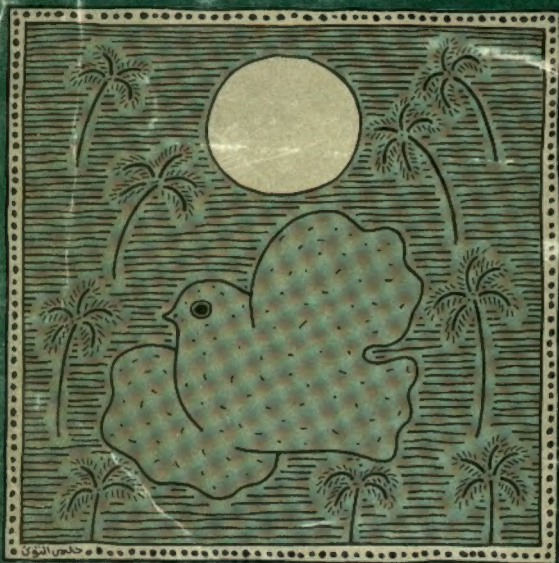


أنيس منصور

طلع البدر علينا



دار الشروق

أنيس منصور

:: شهر الليل :: ليلان ::

www.liilas.com/vb3

طلع البدر علينا

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

الطبعة ١٦ شارع جرد حمر - هاتف : ٠٢٢٤٥٧٨ - ٠٢٢٤١٤١

وليلى : نسيف - فاكس : ٠٢٢٤٥٧٨ - ٠٢٢٤١٤١

بيوت ص - ٠٢٢٤١٤١ - ٠٢٢٤٥٧٨ - ٠٢٢٤١٤١

وليلى : نسيف - فاكس : ٠٢٢٤٥٧٨ - ٠٢٢٤١٤١

دار الشروق

أَسْأَلُكُمْ فِي
الْأَرْضِ الْمَقْدِسَةِ

أريد .. ولكنى لا أستطيع !!

الآن فقط عذرت كل الذين انفتحت لهم « طاقة القدر »
وأتيحت لهم فرصة العمر أن يطلبوا من الله شيئا . ولكن الصدمة
الباهرة أفقدتهم القدرة على النطق ، أو القدرة على أن يرغبوا في
شيء ، وأغلقت أمامهم . وفي وجوههم ، ودونهم طاقة القدر .
وأظلم كل شيء ، ولم يتحقق لهم شيء .. لأنهم لم يطلبوا شيئا .
وعذرت الذين كسبوا الملون جنيه . ثم ماتوا من شدة
الفرحة ، كأنهم خسروها لا كسبوها .

إنها - إذن - المفاجأة التي لا تقوى مشاعرنا على مواجهتها . أو
الوقوف أمامها ، أو الصمود الوجداني لها .

إننى أحاول أن أصف شعورى . وقد تبيأت للحج .
وأحرمت . وتعريت . وتجردت . وأحسست ببرودة النهار
والليل . وخفت من كل أمراض الدنيا . وأعددت لها كل ما
اخترعه الطب الحديث . وعلم النفس القديم .

وأقلت من نفسى درعا من لحم ودم ، ودرعا آخر من الإرادة
واللاإرادة حتى لا أنهار جسما ومعنويا .

إني كالذي يريد أن يقفر قفاة واسعة عميقة . ولذلك يحاول
أن يتراجع إلى الوراء قبل أن يتطلق فوقها .

إني أحاول أن أرجع إلى سنوات مضت عندما ذهبت إلى
القدس . ووقفت أمام حائط المبكى . ألعن الذين أقاموه
والذين عبدوه . وأحسست أن هذا الذي أراه يحسدني عليه
ملايين اليهود في العالم !!

وعشيت لو أن قلوبهم ظلت موجوعة متمزقة على هذا الذي
رأيت ولم يروه .

ولكن الحائط وتاريخه . ودموع المؤمنين به لم يؤنئذ قدما .
ولاساقا .

وقبل ذلك . رأيت . ومشيت في الطريق الذي سار فيه
المسيح عليه السلام . طريق الآلام . يحمل صليبه ويتهاوى
تحت . ورأيت المهد الذي ولد فيه المسيح . ورأيت الجبل الذي
ألقى فيه موعظته الأخيرة . ورأيت الحديقة التي تناول فيها المسيح
عشاءه الأخير . وخانه أشد الناس حيا له . وباعه بفلسوس
معدودة .

وأهتر قلبي حزنا على الرسول الذي جاهد من أجل كلمة الله .

ورأيت معبد النور في طهران . ودخلت ورأيت سراجا منيرا
محاطا بزجاج . وقال لي الراهب

- هذا النور أبدي !!

وضحكت كيف يكون النور أبديا . وأنا أستطيع أن أحمله
بفمحة من أنفي . وأى طفل يفعل ذلك . وكيف أعيد سراجا
صنعه إنسان . ووضع حوله الزجاج . وتحت الزيت ؟ إن النور
الذي يجب أن نعده هو الذي وزاه كل شيء . أماننا .
ووراءنا . وفي نفوسنا .

إن النور الأبدي هو الله .

ورأيت معبد « زرادشت » . ورأيت معبد « بوذا » .
و« كونفوشيوس » .

وفي مدينة « كيوتو » باليابان دعاني أحد الأصدقاء لأرى
أحدث ما اهتمت إليه العقيدة اليابانية في العبادة .

فهم في اليابان يعرفون أنهم مئات الملايين . اليوم وغدا .
وليس في الإمكان أن يذهبوا جميعا إلى المعابد في وقت واحد .
في أى يوم من أيام الأسبوع . ولذلك فإن كل واحد منهم أقام
معبدا في ركن من أركان البيت . يتوجه إليه . ويصلي . فما دام
الله في كل مكان . في الإمكان أن يصلوا له في أى مكان . في
السيارة . في الطائرة . في ركن من أركان أى بيت .

وسألوني : ما رأيك ؟

ورأيت مئات الألوف يتعمدون في طين الأنهار المقدسة .
ورأيتهم يصبغون بالدم وجوههم . ويحرقون بالنار أصابعهم .
كل ذلك عملا باخكة القديمة : إن أسرع طريق إلى الله هو
الألم !

ولكن .. أى إله . وأى طريق ، وأى ألم ؟!

ورأيت أحد الآخرة : وجلست إليه . وشربت معه .
وحدثت وانتقلت منه عدوى الأفلوئزا . وهنأت وزراء « الدلاى
لأما » على هذا الشرف الذى لم ينله أحد من قبل (!!) ..

إنهم يعاشرون هذا الإله ليلا ونهارا . ولكنه لم يفضل عليهم
(بعطسة !) واحدة .. يسعال ، أو التهاب رتوى !! ولكنى أنا
الغريب القادم من بلاد بعيدة قد حياى بهذا الالتهاب فى أنفى وفى
حلقى . وهذا الخبز فى جنى .. فشكرا لقداسه على ذلك !!

إنهم هم الذين يشكرونه بالنبابة عنى !!

* * *

أين هذا كله مما أنا فيه ؟!

لقد ابتعدت جسميا . ونفسيا عن هذا القبيض . والدوربان .
والتذويب لكل ماحوى . أو على الأصح هذا التذويب لكلى
أنا ، وما حوى كله .. إلى آخر المفردات التى يستعملها من
يذهب إلى بيت الله الحرام .

.. مثلا : الطواف . والسعى . والدعاء . والوقوف .
والإفاضة . والشفرة . والرمى .. وكلها مفردات تدل على أن قوة
إنسانية تندفع .. أو على أن قوة روحية تدفع هذا الإنسان معا ..
أى مع الملايين حول شىء . وإلى شىء .

إن الدين يطلب من كل مؤمن أن يطيع . وأن يكون معا .

وأن يتجه إلى الله . وكل شىء يراه . أو حوله ليس إلا رمزا إلى
معنى .. وهذا المعنى قد نبه إليه الرسول من أجل أن يتحقق الخير
العام لكل الناس . « وكل الناس » معناها : كل الناس من كل
لون . وسن : وأرض . وثوب . وموقع ومركز ويجب أن لا
يكون هناك لون أو ثوب ، وأن لا يكون هناك شىء يميز أحدا عن
أحد . فالناس أمام الله سواء .. كلهم قلوب تدق أو لا تدق . أما
أجسادهم .. أما عقولهم .. أما أرضهم .. أما لونهم .. فإن هذا
لا يهم !

إن كل هذا الذى أقوله لم يستغرق إلا دقائق . ولكن كم من
الساعات عشت لكى أرى . وكم من الأيام رأيت لكى أعيش
ساعة . أو أقل من ساعة ؟!

إن ملايين الناس قد زاحموا . وتدافعوا أمواجا يندوس
بعضها البعض . وأحيانا يقضى بعضها على بعض - حتى أصبح
ما يشغل الناس هو : كيف يقفون ليروا .. أو كيف يرون مكانا
يقفون فيه . وإذا وقفوا أن يمدوا أعينهم . أو أيديهم .. ليتأملوا
أو يقولوا شيئا .

إنى لا أدعى أنى أمضيت الأيام كلها أتأمل فى خلق الله ..
فى نفسى . أو فى غيرى .. فإننى لم أكن سعيدا إلى هذه
الدرجة . ولكنى سرقت من الناس ساعات قليلة . وحاولت أن
أجعل إحساسى بها مكثفا . حاولت أن أفض إلى أبعد وأعظم .
ولا أدعى - أيضا - أنى وصلت إلى شىء .. فإن الذى أستطيعه

قليل جدا . والذي أريد أن أعرفه كثير جدا . إن عمرى قصير .. وعمر الإنسانية كلها قصير . وهذا العمر القصير لا يتسع لكل ما أريد . ولذلك فإن القليل الذى أعرفه قد أراحنى بعض الوقت . والكثير الذى لا أعرفه قد عذبنى معظم الوقت . ولا يزال . فاللهم أعنى على نفسى حتى أعرف أكثر . وأسئرح أكثر .

إن دهشة الناس عندما يرون حائوا .. ضائعا . أو أكثر حيرة . أو أكثر ضياعا . لا يفوقها إلا أن حيرى أعظم مما يرون وعذائى أفدح مما يتصورون .

إن كل شئ حولى يقول :

- إن كل الناس حولى بصرخون . وبلهون . وهم جميعا مفردات طائفة متناعة فى كتاب مفتوح . إن عذابنا لاحد له . ولكن أكثر هذا العذاب من أنفسنا .. فنحن بعيدون عن أنفسنا . ولو نظرنا إلى أنفسنا ما كان حالنا هكذا .

والله يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وهذه مناسبة طويلة عريضة أن نعيد النظر إلى أنفسنا لنعرف أين نحن . من أى شئ .. أين الإنسان من الإنسان .. أين الإنسان من الشيطان .. أين الإنسان من الله ؟

إن زحام الناس على رجم الشيطان شئ عجب .

إن الشيطان ليس أمانا فقط . إنه ليس هناك . إنه فى

نفوسنا . وليست هذه الأحجار إلا رمزا .. إن الذى رأيناه فى نهاية الحج يستحق أن نكرهه بعد ذلك . بشرط أن نرجم أنفسنا .. فكنا لبعض شيطان . أو كنا هذا الشيطان ؟!!

هل قلت شيئا ؟!

إنى أحاول أن أبعد لأرى أوضح ..

إنى كالذى يخاف أن يفتح عينيه على قرص الشمس . ولذلك أحاول أن أنظر إلى الظلال . وأنحس الدفء . أو أنظر إليها ببعض عيني وقد ارتسمت على الماء .

إنى أخشى أن أفتح فيها عيني .. فأفقدهما إلى الأبد .

والذى يعزى عن هذه المحاولة .. أنى عندما اتجه إلى الله . فلأنى أراه بلا عيني . وأسمع بلا أذنين . وأحج إليه فى أى وقت . وفى أى مكان ..

إنى الآن أعثر ذلك الإغريق الذى حكى عليه الآفة بأقصى وأقصى درجات العذاب .. ذلك المسكين « تتالوس » الذى وضعوه فى بحيرة من الماء العذب . وسلطوا عليه الشمس . وكلما احتاج إلى الماء ارتفع الماء حتى شفتيه . وكلما أحى رأسه ليرتشف الماء .. انحسر الماء . وظل الماء يعلو . ويهبط دون أن يثوقه إلى الأبد !

إن شيئا من ذلك أشعر به ..

كل شيء حولي يقول .. يطلق .. يضيء .. يظهر .. وأنا
هكذا مغمور بلا أطراف .. لا أستطيع أن أمد عينا .. أو يدا إلى
شيء .. حتى الكلمات لا أجدها .. إن شيئا قد وقع بيننا وبينى ..
أوبين وبين قلبي .. أوبين قلبي وبين الورق .. أو كل الأشياء ..
فأنا رأيت « طاقة القدر » ولم أستطع أن أفصح في .. وواجهت
الشمس .. ولم أمد عيني .. أو كأنتي حجبت بقلبي .. ولكي لم أر
شيئا ..

ولكن .. عندما أعود إلى حيث أستطيع أن أرى أوضح ..
وأسمع أقوى .. وألمس أقرب .. وحيث تصطف الكلمات والحروف
والنقط في خدمتي .. هناك أجيدني قادرا على أن أقول ..

شعرة أنني أريد وأحاول .. ولكن لا أستطيع ..

فإلى مسيرة في العبارة .. والإشارة .. والإثارة .. والنبارة ..
حتى هذا السطر الأخير .. لم أفقد أمل في أن أحاول .. حتى
آخر نقطة في هذا السطر !

أنيس منصور

خطوة قصيرة في طريق طويل

يقول الفيلسوف الهندي « زن » اندي عاش في الصين وانتشر دينه في
اليابان : « إننا ملايين من قطرات الندى ، استقرت كل واحدة عند تقاطع في
نسج لعنكبوت على شجرة في غابة عرضها السماء وطولها السماء .. وعلى هذه
الملايين تسطعت أشعة الشمس .. تضى لها قبل أن تبددها .. وفي اللحظات
السريعة قبل أن تتلاشي القطرات التي ينعكس عليها الضياء .. ضياء الشمس
وضياء بعضها البعض يتساءل الجميع : ومن نحن ؟ ولماذا هنا ؟ وإلى متى هنا ؟
وما معنى أي شيء ؟ - هي التي تسأل .. فهل تستطيع أن تجيب - أنا الذي
أُسأل .. ولأشياء يدل على أنها تقاوم التلاشي والاختفاء في نور الشمس إلا هذه
الأسئلة والأمل في العود على شيء له معنى » وإلا مثل هذه السطور ..

منذ الطفولة بدأت هذه الرحلة .. منذ اللحظة التي جمعت فيها ونحن أطفال
كلمات : الله والتي والجنة والنار .. وكانت كلها غير واضحة .. ولكن يصحبها
كثير من وسائل الإقناع بالكلمات والابتسامات والملاحظات .. من الأب والأم
والأخوة والناس .. وانغرس في أعماقنا أن الخير جنة وأن الشر نار .. وأن التي قار
ذلك والقرآن يؤكد كل يوم .. وأن هذه أمور لاتناقش ، وإنما نسمعها
ونحفظها ولا نهنس بها .. ونسكت عليها .. لأن الجميع يسكون .. سنوات
وسنوات وهذه احقائق قد أصبحت كالمحتم والندم .. وكالعين والأنف

والأذن . أضيف إلى احسم الإنسان . أو أقيم عليها الإنسان والإنسانية .
وأول كتاب حفظه وأنا طفل هو القرآن الكريم . ولا أستطيع أن أقول إنني
فهمت منه شيئاً . ولكن موسيقى الآيات وروعها وتكرارها اليومي على لسان
إبقاها في ذاكرتي ..

وجعلني موضع تقدير الجميع .. ولم أكن أعرف أنني حققت شيئاً كبيراً إلا
يوم ذهب شيخ الكتاب يعلن نوالدي أن ولده قد أتم القرآن الكريم .

وأذكر بوضوح البهجة والسعادة على وجه الجميع .. ولا كيف يقدموني
عليهم . وكيف كنت أصدّر كل مجتمع ولأنتي طفل صغير أميل على ذراع
والدي وأنا . وكثيراً ما كنت أسمع من يقول : وهل أنت حفظت القرآن
الكريم .. إن طفلاً صغيراً قد حفظه .. إنه رضا الله .. وعقلك التخزين ..

فإن رضا الله أنني حفظت . ولأن عقله تخزين والله غير راض عنه . فهو لم
يحفظ القرآن الكريم .. وكما هي عادة أهل الريف في قرية نوب طريف مركز
السبلاوين دقهلية اجتمع الشيوخ والناس الصييون والعمدة وشيخ اليلدة في
بيتنا . وكان البيت فصرّاً عظيماً سكن فيه ويملكه علي باشا يكن . وكان أبي
مأموراً بتفائيش علي يكن وعز الدين يكن ونعمت هانم يكن . وفي ساعة
مبكرة من اليوم تغيرت ملايبي وتبدلت .. وأحسست بمن يقول لي : لا تلعب
اليوم .. فاليوم يومك !

ولم أفهم من هذه العبارة إلا أنني لم أُلعب . وإلا أن الخلاقي جاء وقصص
شعري . وإلا أن بعض الخلو قد امتدت إلى جيوب وبضعة قروش إلى يدي .
وإلى أن النظرات تغيرت . ولم أفهم بالضبط ما هذا الذي تغير . ولما لمنا ؟
ولكن الناس جميعاً يخفونني ويقولون شيئاً لا أدره . إنهم يؤكدون أن اليوم

مختلف عن أي يوم آخر .. ولكنني خفت ولم أسأل أحداً . ونحيى القبلات من
الصغير والكبير تعمري . إن هذه القبلات قد عرفتها فقط عندما كنت مريضاً .
أو عندما مات أحد أقاربي . ورحمت أبكي عليه . مع أنني لا أعرفه . ولكن
رأيت أُمِّي تبكي فبكيت . إذن ما هذا الذي سوف يحدث ؟ ما هذا الشيء
الذي تسبقه النظرات والأوامر المشددة والتي تخدري من اللعب اليوم . وهل هو
اليوم فقط ؟ أو هو كل يوم ابتداء من اليوم ؟ لا أعرف .. وطال النهار .. وجاء
الليل على مهل .. وأضئ البيت بالكويات .. وجاء أناس كثيرون .. بعضهم
يعرفني ويقبلني ويضع القلوس في يدي .. وبعضهم لا يعرفني . ولكن بسرعة
تمت الأيدي تشير إلي .. والقبلات بعد ذلك .. وأنا خائف .. ما الذي
ارتكبته .. لأشء واضحاً في رأسي في ذلك الوقت ..

وبعد أن تعلقت الأصواء جاء الليل بسرعة كأنه كان ينتظر المصاييح ليتسلل
إلى عيني وأنا . في ركن من أركان الغرفة . ويوقظني الجميع .. وتتردد عبارات
تنوي في أدنى : يا بختك .. الجنة لك .. ادع لنا ! ..

وتحدث الناس في أشياء كثيرة . لا أعرف ماهي وتناولوا العشاء . فقد ذهبت
بعض الأغنام .. وطلع النهار . وعرفت أن هؤلاء الناس جاءوا ليباركون الطفل
الذي ياركة الله . وكان هي أن أعرف هل اليوم التالى مثل أمس . أم أن كل
شيء قد انتهى . لم أجهد نفسي في فهم شيء . فقد عاد كل شيء إلى ما كان
عليه . والذي سافر . الناس اختفوا . عاودت اللعب في الشارع ..

وفي العام التالى دخلت المدرسة .. وكان معروفاً لدى القليل أنني أحفظ
القرآن الكريم .. ومثت من أبيات الشعر . في مقلتها الشعر الذي نظمته أبي في
التصوف وفي الهجاء وفي الغزل .. وقصائد طويلة لشعراء آخرين .. وأعتمد أنني

ما كنت أفقه منها إلا القليل .. ولكن قدرتي على حفظ الجيد من الكلام قد تأكدت . فأنا تلميذ مختلف .. وهذا واضح - أو هكذا كان المدرسون يقولون ..

والتيت بأطفال معي من أديان مختلفة . ولم أعرف معنى الأديان المختلفة . ولا أحسب بها ونحن نلعب . ولكن مانسعه حولنا وفي بيوتنا جعلني أنظر إلى هؤلاء الأطفال نظرات مختلفة . وأحاول أن أجِد فيهم شيئاً مختلفاً . وأصبحت صداقتهم خطراً . وأصبح التحدي هو لعبتنا نحن الصغار . فنحن نلعب أطفالاً من أديان مختلفة وكان اللعب معهم ذليلاً على أن الأطفال من كل دين هم الأطفال . وأن لاختلاف بينهم . ولكن لأسباب أخرى خارجة عن صفاء الطفل وبساطته ، نقيم الفواصل والحدود الشائكة .. ثم أصبح هذا الخلاف واضحاً . ففي حصة الدين يجتمع أطفال ، ويخرج أطفال ، وعند الصلاة يذهب أطفال إلى الجامع وآخرون إلى الكنيسة وفئة قليلة إلى المبد .. ولم تفكر ونحن صغار في هذه الفوارق كثيراً . رغم أننا نسمع كثيراً حكايات وتوارد عن أبناء الديانات الأخرى كيف أنهم وراء النعومة ثعابين ، ووراء السكون سكاكين . وكنا نسمع ذلك ونصدقه . ولكن لانجده بين هؤلاء الصغار .. وكان يقال لنا : إنهم صغار . لا يعرفون . وعندما يكبرون سوف يكشفون ذلك !

ولا أعرف إن كان هو التحدي ، أو الشعور العميق هو الذي جعلنا ونحن ضلة في المتصورة الثانوية نفكر في تشكيل جمعية دينية اسمها « جمعية المفكرين الأحرار » ولا أعرف من أين اهتدينا إلى هذا الاسم الغريب . الذي لاعلاقة له بالدين . أو مفروض أن ينطوي على التحرر من كل فكر سابق أو دين . ولكن يبدو أننا اخترنا هذا الاسم للدلالة على أننا نجربنا اختراق البحث في الدين . وكنا

أربعة . واحد أصبح شيوعياً عتيداً والثاني أصبح فعلاً من رجال الدين المسيحي . وهو الآن في أثينا . والثالث يعمل في الإذاعة الإسرائيلية من تل أبيب .. وأنا .. ولم يكن هناك أى تدبير أو تفكير .. ولكننا مجموعة من الطلبة نسكن في شارع واحد في المتصورة كان اسمه شارع كوهين . وكنت أسكن في رقم ٩ .. جيران . ولم نتناقش في الدين إلا قليلاً . وإنما كنا مشغولين بالشعر والفلسفة والتاريخ .. وكانت لنا عادة لا أعرف كيف تكونت وهي أن يقرأ كل واحد منا كتاباً . ثم نجلس على الليل في المتصورة للنخسة . ونتناقش بعد ذلك .. ونفترقنا .

وفي الجامعة لا يزال الدين نوعاً من المعامرة أو المخاطرة . أو الشيء العجيب وقد تخصصت في دراسة الفلسفة . أو الفلسفات والأديان . ومقارنتها . وقرأت التوراة ولا أدعي أنني أخذتها مأخذ الجد . ولكن أفرغتي قصصها الجنسية الفاحشة . ولم أفهم لذلك معنى ولا سألت أحداً . واستوائى من الأناجيل لجيل يولس الرسول . وربما كان يونس أقرب كل الحوارين إلى الفلسفة اليونانية . وقرأته باللغة العربية . ولم تعجبني لغته . وترجمته من الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة العربية السهلة . وما أزال أحفظ بهذه الترجمة !

ولا أعرف ماذا فعلت ذلك !

وقرأت « دلالة الحائرين » للفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون طيب صلاح الدين الأيوبي . وكان هذا الكتاب يستهويني ضويلاً لأنه مكتوب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكانت فرصة للتمرين على قراءة اللغة العربية . ولا أقول إنني فهمت شيئاً مما قرأت . ولكنها كانت فرصة لإشباع الرغبة في التحلى . غدى ماسمعت ولم أفهم عن الأديان الأخرى . وأبناء الديانات

الأخرى . وكان من أساندة كلية الآداب في ذلك الوقت مستشرق يهودى ثمانى
يوغوسلافى اسمه : ياول كراوس . وكان شخصية فذة ، وكنت من المعجبين به .
ومن التلامذة المتابعين له . وكنت أحضر دروسه ، ولم يعرف إلا في نهاية العام
أننى تلميذ متطوع فقط . وأن تلامذته قد هربوا منه . وكانت صلحة هائلة له .
فقد أنقى الكتب على الأرض وداسها غزائمه . فقد طن أننى واحد من تلامذته
المخلصين ، ولست واحداً من التلامذة المخلصين للعلم فقط . وكان يدرس «لى»
في ذلك الوقت : ابن الهيثم والرازى وابن المقفع وإخلاج .. وكان يأمل في أن
أشترك معه - أنا الصغير - في إعداد قاموس يونانى - عربى عن الكلمات التى
استخدمها المترجمان إسحاق بن حنين وحنين بن إسحاق والمعاصرون لها . عندما
نقلوا اختصاره اليونانية إلى اللغة العربية !

وسهرتني دراسة الفلسفة . وأحسنت أن أنواعاً جديدة من العدسات
الملتصقة قد ركبت لعمري . وأن دنيا جديدة بألوان جديدة ومسافات جديدة قد
ظهرت . ومن العجيب أنها ظهرت في نفس الأماكن التى اعتدت ألا أراها
فيها . الناس لهم معنى آخر . العلاقات لها دلالة أخرى : الله والعالم والناس
واقعي ، الأخلاقي وقيم خيرية والنفس والحياة وموت والمادة والروح والعصاة
والأبطال والأسياء والقديسون والحواريون والصحابة والتابعون والمراويش ..
وفقرت كلمة جديدة أصبحنا نسرف في استخدامها بلا خوف : الإلهاد

وشجعنا على استخدامها أننا كنا نتردد على بيت الأستاذ العقاد في مصر
الجديدة . كان هو ليايلى بشيء وفي إحدى المرات أخذ الأستاذ العقاد يتكلم عن
الله والسماء والأرض . ويقول : كيف خلقتني الله في عصر يعيش فيه هؤلاء
البهاائم - ويشير إلى عدد من الحكماء والزهاد وأساندة الجامعة !

وعندما يفرغ الأستاذ العقاد من هذه العبارة كنا نشعر أن السماء لا بد أن
تطبق على الأرض .. أو أن بيت العقاد يجب أن يتهدم فوراً . فقد قال العقاد
شيئاً رعباً

وأذكر أننى أحسنت أننى فقدت السمع والبصر عندما قال الأستاذ العقاد
مرة في إحدى حالات غيظه : نوأعطيت المادة الأولية هذا الكون لصنعت كونا
أجمل من هذا ؟! ..

وقد ضربنا الأستاذ العقاد على رؤوسنا . بل إنه فتح رؤوسنا وأمسق منها
الخوف . ثم أعادها إلى مكانها .. أو إلى مكان آخر من أجسامنا . دون أن
يبدى . ولم يكن العقاد إلا مفكراً عظيماً . ومؤمناً عظيماً . ورائداً عظيماً . فقد
أضاء لنا كثيراً . وشجعنا . ودعانا . وملأ عقولنا بالفكر . وملأ الفكر بالاعتزاز .
وجعل المفكرين في قبة البشر . وكان ذلك شعورنا عندما نذهب إلى منزل العقاد
(١٣) سليم الأول في مصر الجديدة) فقد كان اجتماعه يوم الجمعة من كل
أسبوع . وكانت المصالح الحكومية تضع الأعلام بمناسبة هذه الإجازة . وكنت
قول لأنفسنا : إن من يذهب إلى العقاد يجب أن ترتفع الأعلام لتحيته !

وفي هذا الوقت أيضاً ظهرت شخصية قريبة منا ولنا . ولكنها شخصية
شائكة . بلا نود ولا نخوة . ولا إنسانية أيضاً . شخصية أرادت أن تكون باهرة
دون أن تهدى أحداً . عالية دون أن يقرب منها أحد . شخصية أرادت أن تكون
هناك فوق ولا يلمحها كثيراً أن يكون أحد مثلاً أو قريباً منها . إن هذه الشخصية
نشبها الله . الذي تحدث عنه الفيلسوف أرسطو . فقد كان أرسطو يتصور الله
على أنه حائس هناك فوق . وقد أبدى ظهره مكبواً . وهو يدير الكون ظهره -
احتقاراً منه لشأن الكون والكائنات . ولأن الذى يديره شيء . - معه أنه

يتمه أو يحتاج إليه ، والله لا يهمل إلا نفسه ولا يحتاج إلى أحد ، فالذى يحتاج إلى شيء ، هو الناقص ، والله كامل ، إذن لا حاجة به إلى شيء أو إلى أحد ..
ولذلك فأرسطو قد صور الله علانياً بعيداً أدار للكون قهواء ، وترك كل شيء يعمرى في القواعد التى وضعها له ..

هذه الشخصية التى نشه آله أرسطو هى د عبد الرحمن بن حوى

فقد كان يدرس لنا الفلسفة اليونانية .. والفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية والفلسفة الوجودية .. لقد كان يهزنا بعنف ، يهزنا ويتركنا نلهث وراءه ، فهو حاد الملامح ، سريع الحركة ، له نظرات خاطفة لا مبالية ، وإذا حاول أن يكون رقيقاً كان جارحاً ، ولكنه كان ساحراً لنا ، وكان يرتدى بدنة زرقاء - رأيناها أكثر من عشر سنوات - وطربوشاً أحمر قائماً ، ويمشي بخطوات سريعة آتية ، فإذا دخل القاعة ، لم ينظر إلى أحد ، لقد جاء ممثلاً بالعلم ، وعلياً أن نستمع ، وأن نكتب ، وهو يفتح فمه عندما يلقى الجرس ، ويطبقه عندما يلقى الجرس ، وكأنه نكبت ، ولا نعرف كيف يمكن أن يكون للإنسان مثل هذا العلم يوماً ما ، وقد حاولنا أن نقلده ، وأن نخطو خطواته ، وأن نخبه وأن نكرهه ، ولم يكن هناك اعتدال في العلاقة به ، ففريق يحبه جداً ، وفريق بكرهه جداً .

وأعتقد أنني كنت من الذين يعجبون به ، لأن حبه صعب ، فالحب يقتضى أن يكون هناك تناهى ومودة واقتراب أكثر ونضحية واعتماد عليه ، ولكن لأشياء من ذلك ممكن ، فهو بعيد وحريص على ذلك ، ونحن لانستطيع أن نضيف إلى الإعجاب به الهوان معه ، ولذلك ظل هو هناك وطلبتنا نحن بعيدين عنه ووراءه ..

ولا أعرف بالضبط بالضبط ما الذى كان يشه له د عبد الرحمن بدوى في ذلك

الوقت ، وكل ما يمكن أن يقال عنه أنه « موسوعة » فلسفية .. وذاكرة غير طبيعية ، وقدرة خارقة على التحصيل ، ويستمتع بكرامة الكثيرين ، وفي مقدمتهم الأستاذ العقاد ، وكان ذلك صدمة لى ، فلم أكن قد تعودت أن يزعم عنى أحد في البدايات ، وكان العقاد من البدايات ، وعبد الرحمن بدوى من البدايات أيضاً ، ولم أعرف كيف أوفق بين الإثنين ، ولكن العقاد كان أقرب ، فانا أجلس إليه ، وأحدث معه ، وأداعبه ، وهو يروى لنا انكبت ، ويحدثنا عن السياسة ، ويسأل عنا ، إنها أبوة لانظير لها ، ولكن عند الرحمن بدوى لا هو أب ، ولا يستطيع ، ولا هو أخ ولا هو صديق ، ولا أعرف كيف يمكن أن يكون هناك لقاء معه أولقاء به .. ولكنه شخصية تستحق الإعجاب والدهشة ..

وأصبح عبد الرحمن بدوى مثل كل الأبطال الذين نقرأ عنهم ولا نجدهم في حياتنا ، إذن هو شخصية أسطورية ، يدواه كذلك ، لأن أحداً لم يره ينشئ في الشارع أو يجلس في مطعم ، ولكننا نجده في المكتبات دائماً .. وبسرعة تغيرت الصورة فقد وجدته في الشارع وفي المطعم ، ووجدته يضحك ووجدت من أصحابه من يخرج معه « ويشتم » كما يفعل الأصدقاء .. ووجدته حريصاً على المال .. إذن لقد تساقطت علينا معلومات كثيرة تشجعنا عليه ونهز أكتافنا إذا رأيناه ، إنه إذن واحد لكل الناس .. وبطلونه الأسطورية من صنع أوهامنا ، بل إذا جلسنا إلى أستاذ آخر عن أعشاب كلية الآداب ، وكان يقرأ لنا ارسائل التى ترجمها الشاعر الألماني ، بلغة - ولم يكن هذا الأستاذ يعرفها ، ولكنه رحل بسيط استراح إليها ، إنه د عبد الهادى أبو رييدة ، أستاذ انقلصة الإسلامية في ذلك الوقت .. كيف فعل ذلك ؟ وكيف لا يفعل غيره ذلك !

وأصبحت من الأسماء الحسى على أنستنا في ذلك الوقت : نبتشه وشبلر

واشبحلر وهينجر ودلنای وتيسر .. وغيرهم من الألمان . الفلاسفة والمؤرخين .
إذ قد وجدنا أنفسنا غارقين في افكر الألمان

وأقبلت على كل ماهر ألماني : اللغة والأدب والفلسفة . وأصبح طلبة
الفلسفة متميزين بمصهم عن بعض . نحن المثانيون الغارقون في الإيمان بالملطق
وانفكر الجرد والبطولة والصوفية . والآخرون ماديون واقعيون منطقيون شعبيون

ولا أضرب أن كل هذه المفردات كانت واضحة في رأسي في ذلك الوقت .
بل لا أعرف أين رأسي من قلبي . وأين قلبي من عقل عبد الرحمن بدوي في
ذلك الوقت . لقد انشغلت بهوساً وامتنلت وأزدهمت ونحى نوره بها راغب
غادين من المكتبة وإني أبيت

وسرعة انتقلت إلى الفلسفة الوجودية . وهنا صيبي . فتضياع بين الأفكار
والمناهب وتعدد آفة الفلسفة وعمر النفس وتعدد القبالات والعبادات والكب
الفكرية المقلدة قد محاكى معالي . ولم أعد أعرف من أنا . فأنا مثل طفل يتعب
إسمه كل يوم . فهو لا يعرف له أباً ولا أمّاً ولا بيتاً ولا لغة ولا وصفاً . إنه ابن
الجميع . ومن صنع الجميع

وكان لابد أن يتوقف الإنسان عن الجري وراء كل هذا الذي قرأ وسمع ..
وأن تنخفض درجة حرارته .. وأن يلقى بالماء المنح على رأسه لينقي من هذه
الحصى الفلسفية .. وأن يفتح مضته الواقية ليهبط برفق على أي أرض صلبة ..
أي أرض .. فقد تعب من الموارن حول الذي لا يعرفه .. فليس في كوكب
واحد أدور حوله .. إني أصبح وأنا م وفي أثناء النوم يتغير الكوكب الذي أجد
نفسى ألت حوله .. فلا أعرف إن كنت من رواد الأرض أو القمر .. الفلسفة
الألمانية أو الفرنسية .. الهدية أو الفارسية .. الإيمان أو الإلحاد .. مصرى

برغيا . أو مستشرقاً أو مستغرباً مهجرأ أو مهجرأ أو مقياً مصرياً وطنياً أو
مطروناً من نخي وأصلى وتاريخي ..

وفي الفلسفة الوجودية وجدت أنني أقول : إني .. وأقول بخوبة ..
تجاني .. تاريخي .. حاضري .. إرادتي .. ديني .. ربي .. مصري
منشئلي .. نهائي .. موني .. قنني .. فرعي .. وجودي وعدمي ..

في الفلسفة الوجودية أكدت نفسي . في مواجهة الذين يهربون من كل
اعتزاز برأى أو فكر .. كيف يكون لي رأى أمام فيلسوف عظيم مثل هيجل أو
ماركس . أو نيتشه أو شوبنهاور . أو أفلاطون أو رسل أو يكون أو أسبوزا ..
كيف أنهم تفرغوا للذي لم أستطع أن أنفرع له .. أضاعوا العمر وأضاعوه بالفكر
والوجدان .. أين أنا منهم ؟ كيف أمضى في حبي وأخرج ملائكي العقبة وأنا
واقف أمام خزائن البنت المركزية . لا بد أن أنشغل بما يملث غيبي .. وأن
أحدث عن ثرائهم . وفي الحديث عن ثرائهم إحقاق لفرق وعجزى
والفلاسي .. لم يكن من السهل أن أحدث عن نفسي أو عن الذي في داخلي أو
الذي أريده أن يكون في داخلي .

وجاءت مع المذكور عبد الرحمن بدوي « الفلسفة الوجودية : .. والنقطة
الكنية .. والمفردات التي أدخلها إلى الفلسفة .. وكانت هذه الكلمات تأشيريات
تدخول وخروج من كل المناهب الفلسفية والدينية .. لدخل ونخرج كما يخلو لنا ..
فلا خوف .. فقد طيننا أجسامنا بالشمع .. فلا خوف من الفرق .. إن أطواق
النجاة في أعناقنا . فلا خوف أن نغرق في التيار .. ومن صميم حرياتنا أيضاً أن
نقل ونرفض ما أعجبنا من كل ما كتبه وقاله د . عبد الرحمن بدوي والعقاد
وعبرها !

فقد تجرأت في إحدى المرات وسألت العقاد - لعلك تلاحظ أنني لم أقدر
الأستاذ العقاد - وناقشته في كتاب صدر له . ولم يكن العرص من السؤال أن
قول شيئاً إلا أنني قرأت الكتاب وفكرت فيما قرأت وأن لي رأياً خاصاً . ومهما
كان هذا الرأي فهو وجهة نظر لطال صغيراً فيها كتبه أستاذ كبير . ومن الممكن
ألا أحسن السؤال . ومن الممكن ألا أحسن الفهم . ولا يمكن أن أكون
مستخفاً بالعقاد أو أحاول أن أخرج به - لاشيء من ذلك !

وثار العقاد .. لدرجة أنني لم أعرف ما الذي قاله .. وارتفع الدم في رأسي
طويلاً .. وبعد وقت قصير وجدت العقاد يتحدث في شيء آخر ويضحك ..
وانتهت الجلسة .. وفهمت من زملاء ندوة العقاد أن العقاد لم يكن على حق .
وأنه ثار بلا سبب واضح .. وعرفت في ذلك الوقت أنه هو أيضاً من الممكن ألا
يكون على حق وأن يثور لسبب وتغير صلب .. ولكن - مع ذلك - فزايده أكثر
من عيوبه .. ولم أمتنع عن التردد على بيت العقاد !

وأذكر أنني ناقشت في إحدى المحاضرات رأياً للمذكور عبد الرحمن بدوي ..
ولا أعرف ما الذي قاله .. ولكن لا يمكن أن يكون شيئاً مشجعاً .. وأدهشني
ذلك .. ومن غضب الطلبة وصيق المدرسين عبد الرحمن بدوي . تجمعت
تدريساتنا على الانفصال عنه .. رغم التأثير العميق به ..

وم يعجبني كتابه عن «الوجودية» وأصدرت أنا كتاباً عن «الوجودية» وكان
أسهل كتاب وأول كتاب صدر عن الوجودية باللغة العربية . ووزعت منه أكثر
من مائة ألف نسخة في سنة ١٩٥٣ !

وما كتبه عبد الرحمن بدوي عن الوجودية لا يفهمه إلا الذين درسوا
الفلسفة . أما الناس العاديون فيستحيل أن يفهموه .. وأعتقد أنني أستطيع مالا

يستطيع وكتب .. إنني إذن أختلف عنه تماماً . ولا يمكن أن أكون مدرسا
للفلسفة مع أي فت تدريس الفلسفة اليونانية والحديثة ومقدمة المرحومة و
كيفية الآداب سبع سنوات . وكل قرأت لا أكون مدرسا . وألا أحب ولا
أستطيع فهي مقدمة خاصة . وأنا أريد أن أكون أكثر انطلافاً فقد تعددت
القيود على عقل وقلبي ولساني ويدي وساق .. قيود الطفولة والدين والفلسفة ..
قيود الحب والإعجاب والإيمان بالطولات الفكرية .. وأريد أن أتحرك من
الأوثان الإنسانية .. دون أن أحطمها .. فلا أستطيع .. ولست نبيا ولا صاحب
دين جديد .. ولا قادراً على صنع تماثيل أخرى . لي ولغيري

ولكن طالبت سنوات الفلسفة .. وانثرت سنوات الكفاح من أجل أن أجد
نفسى .. قارئاً وكتائباً .. وانشغلت عن كل شيء إلا القراءة .. وكان والدي
يقول الحكمة الماثورة : منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال ! وكنت أن
طالب العلم .. ولم أعرف إلا متأخراً جفا أن الإنسان يجب أن يطلب المال .
ليستطيع به أن يجد العلم في الكتب أو في السفر بين البلاد وبين الناس ، لأقرأ
هذا الكتاب المتنوع الذي اسمه : العلم .. وانتهى صغره الإنسان بيديه ورجليه
وعرقه ودمه ودمعه - ودمه أكثر - طبياً لنحرية من الفقر والخوف والمرض
والجهل والظلم .

وابتعدت كثيراً جفا عن عيون الناس لأجد نفسي .. وأغضضت عيني عن
كثير من الذين أحجم ، لعل أجد شيئاً أو أحداً أحبه .. وعرضت جسمي لكل
شمس .. وأعطيت أذن لكل صوت . وعلفت أجفاني بكل صورة . وأعطيت
عيني . بدلتها . بددتها . أرققتها . عثرتها . نثرتها . كنى أحجمها وأمسكها
وأحرص عليها من جديد ..

ولكني لم أجد إلا ما يزعجني ، وإلا ما يغني . فبحني عن الحرية حررتني من الحرية نفسها .. فوجدت نفسي عبداً حياً مقيداً بكل هذه الكلمات التي وجدتني في الوجودية .. حتى أصبحت الوجودية هي لغتي .. ولا أعرف غيرها .. والذى ليس وجودياً ، فلا وجود له .. فالتاس نوعان وجوديون ، ولا وجود لهم .. ولكن كيف ؟ هل كل من يختلف معي في الرأي ، لا رأى له ، ولا معنى له . ولا وجود له . إذن أين هي الحرية .. هل الحرية أن أكون أنا حراً ، ولا حرية لغيري . إذن ليست حرية هذه .. الحرية لي ولك .. إن اختلف معك أو اتفق معك .. إذن فهذه الوجودية التي تنادي بالحرية تسلبني في أول لقاء ..

ثم هناك أكثر من فلسفة وجودية ..

وجودية ترى أن الله ضروري ، وأن الأديان أصاليب حياة بين الناس .. ولابد لكل إنسان من أسلوب في الحياة . والدين أسلوب حياة الشعوب لأنه أسلوب حياة الأفراد . وهناك وجودية ترى أن مشاكل الإنسان العادية معتقدة وصعبة .. وأنه لا يستطيع أن يحلها كلها ، فكيف يضيف إليها مشاكل أكثر من مثل : الله والكون وموت والقيامة ونعت واحشر والشور . إن الوجودي العقل هو الذي يعرف أن عقله قاصر ، وأن الله فوق العقل .. وأن الطفل الذي لا يعرف كيف يخطو خطوات لا يعرف أن يجب المساعدة بين الأبرص والشمس ذهباً وإيائا على أصابعه . وأن العقل الذي لا يعرف ماذا وراء الشمس أو الشمس . أو لا يستطيع أن يفسر السماء شراً لا يعرف من هو الله وما هي حدود قدرته . إذ يجب أن تشمل الوجودية حياة الناس . فقط الحياة . أما ما بعد الحياة فهو شيء بعد العقل .. ونحن لا نملك إلا العقل فقط !

والذى أقوله اليوم في سطور ، قد أقام سنوات طويلة في رأسى .. هذه وقسمه بعضه على بعضه .. وأسقطه على كثي ، وكسره على يدي ، وأحناه على الورق ، وأضناه على مشاغل الحياة والسعى وراء الأمانى تسحب مني لحظات الانفراد بنفسى .. وتلقيني على الآخرين معهم وبينهم .. وطالت السنوات وورحت أصاب نفسي بتعويض عن سنوات الشقاء والعذاب والحرمان . وانطلقت من نفسي بعيداً عن الناس وعن الأرض وعن الأهل وعن مصر وسافرت وانتحيت نفسي على كل شيء هناك . وأصبحت لي عادات جديدة في الحياة وفي الفكر .. ومن بين هذه العادات الجديدة أن أتابع كل ما تحفه أفلام الناس في الشريط الأخرى من أساطيرهم .. والذى يمت الإعجاب به واحدة معه .. والسير على هناه .. فما من مفكر كبير ظهر في ربع القرن الماضي إلا وأعرف عنه شيئاً كثيراً . أو ألا أحد له كتاباً أو أكثر في مكتبي .. وكان من عادتي أن أحفظ بصورهم .. وبعد ذلك توقفت عن هذه العادة المسيانية . فقد أغتنى كتبهم ودوائر المعارف عن ذلك .

أذكر أنني ذهبت إلى «الدير الدومينيكي» في العباسية .. وكنت أدرس الفلسفة المسيحية هناك .. وفي يوم وحلت صورة لرجل أعجبت به جلت . وأريدها .. ولا أعرف كيف أحصل عليها .. ولا أستطيع أن أشتري الكتاب الذي وجدت فيه .. وصلت من الصديق الأب فتوانى أن أفتني هذه الصورة .. وكانت ضحكته الساخرة مقننة لي .. إذ كان معناها : كيف أنزعها من هذا الكتاب أو كيف أعطيت هذا الكتاب حتى لا تنزعها .

وقد رت أن أدع الكتاب مفتوحاً ، لأنظر إليها من حين إلى حين . وبعد ذلك . اشترت كل مؤلفات الأب تيلار دي شاردان وقرأت أروع ما كتب

ووجدت أن أفكاره لزوع من صورته . فهو عالم ورجل دين وفيلسوف وهو قبله مضية .. تضىء مختلف !

وتوات الكتب التي تصور قفي وفرعى وحرقى .. واحتلفت الآراء حول هذا الذي يملأ نفسى ويقض بها على الورق .. ولم يكن سبب ذلك إلا الغليان في داحى . بلا براكين في أعماق ترمى بحمم على الورق وتكن هذا العذاب هو من شأنى أنا .. فالكاتب يتمذب ويكتوى ويتلوى ويتأوه . ولكن إذا واجه الناس عليه أن يقول ما يريح الناس ويقيدهم في حياتهم أو يهديهم إلى ما هو أفضل .. فالذى يقدم طعاما للناس لا يعرض عليهم أدوات المطبخ . ولا يأق بالفن بينهم .. فيصيدهم شرر من النار .. فليس هنا من شأنهم : إتهم يريدون أن يأكلوا ..

ولكن الكاتب يريد أحياناً أن يعرض على الناس صوراً من عتابه ومن براعته في التخلص من العذاب لتعلمهم يفعلون مثله .. أو لعله يشعر لحظة واحدة باقتدار على أن يفعل ما يعجز غيره عن فعله . ولذلك نعد الكثير من المطاعم تقدم الطعام وتطهوه أمام الناس .. ويرى رواد المطاعم أن المسافة بين المطعم والمطبخ قليلة .. وأن المودة بينهم وبين الطاهى عميقة .. فلا مسافة هناك .. إتهم أسرة واحدة .. وهنا ما يغرى الكاتب في كثير من الأحيان أن يؤكد للقارئ لعله يستريح - القارئ يستريح - والكاتب أيضاً !

وقد فعلت ذلك كثيراً . ولا أظن أنني استرحت .. فقد كان كل ما أقرأه هو نوع جديد من الوقود . يجعل المس أكثر لها . ويجعل السب أكثر تنوعاً . ويزيدها موسيقياً كثنى أفوه نتجيم الشقاء بمضى ولعمرى . حتى أصبح هذا

النتجيم أو التعذيب - أى جفنه عدداً - سدياً في خيبة . وصر هذا الأسلوب .. وكان لا بد أن أهرب منه

وتوات كتب أخرى تصور هزنى من عذابى .. هزنى من حباتى .. ولكن لم أجد لنفسى محباً عقلياً أو عاطفياً ..

وبدأت دورة جديدة في التردد على معابد من كل دين

وذاب الشمع الذى وضعته فى أذنى ؟!

أصيب الفيلسوف ، الذى نبتهت بحزن فى آخر أيامه ، وفى عزت لمعى
اعبر والأتان الموقت ألف كتابه الرائع ، الحنون والحكمة ، الذى عرف بعد ذلك
باسم «أخنى وأنا» . وكانت أخته أيضا على درجة من الجنون . فقد احتشدت الآراء
والقراءات والانتقالات فى عقله وصلده حتى انفجر بكل شيء
وانطلق نور عقله ونور عينيه .

يقول نبشته : ما الذى جرى ؟ إننى مثل عوليس بطل الإلياذة . وقد
نصحوه أن يضع الشمع فى أذنيه حتى إذا اقترب من المغنيات الساحرات . لم
يقفز من صفيته ويروح ضحية هن . وقد حرص عوليس على أن يربط نفسه إلى
شراع صفيته وأن يقترب من الساحرات . ولكن حدث شيء غريب .. فبدلا
من أن تغنى الساحرات ، فهن الترنم الصمت . وعرضن الوجه الجميل
والشعر الحريري ، والأجسام الفاتنة . ولم يتطقن بكلمة . وإنما تركن الكلام لبقية
أعضاء الجسم .. فلماذا حدث لعوليس .. إنه اندفع بسفيته وخطم على الصخرة
التي جلست عليها الفاتنات الساحرات .. ولم ينقعه الشمع الذى ملأ به أذنيه .
ولا الحبال التي التفت حول جسمه ويديه .. لقد دخلت الساحرات من عينيه
دون كلمة واحدة

ولا أقول إننى هذا عوليس الذى سد أذنيه بالشمع وربط نفسه بالجبال
حتى لا ينفسه شيء مما رأى . ولكن هذا الشمع كان صعبا فى حياته . فلماذا
أن أعرف فقط ولم يكن عندى استعانة لأن أصدق . أو لأن أهر وأسقط
راكما أو ساجدا . فقد كان أبى رجلا مؤمنا . ولا أعرف لماذا لم يكن حربصا
على أن يدفعنى فى ضريقه . فقد كان حتى له يعلمنى أفعل كل ما يقول به .
وتعبت منه شيئا واحدا مع الأسف الشديد : ومع كل لأسف أن أصحو فى
الساعة الخامسة من صباح أى يوم . كان يصحو نضلة وتلاوة القرآن وشرب
الشاي بالنعناع وكنت أحب والدى . وأحب صوته وهو يرتل القرآن وأحب
النعناع فى الشاي

وكنت أصلى وزامه .. ولا أعرف بالقبض ما الذى كنت أعمله . أن
أصحو معه وأجاسه . وأنام بسرعة وينقضى إلى السرير . هل هى حاجة إلى مزيد
من العطف ؟ هل سبب ذلك أن والدى كان دائما بعيدا عنه . تسكن فى بلد وهو
يعمل فى بلد آخر . هل هو الشعور بالأمان إلى جواره . ربما كان انعدام الأمان
هو الذى جعل طفولتى خائفة . ولم أكن وحدى الخائف . ولكن أُمى أيضا .
فنحن تنكمش ونكتم بعضنا إلى جوار بعض خوفا ولكن من أى شيء كنا
نخاف . لا أعرف فى ذلك الوقت بوضوح . ولكن كنا حريصين على إقفل
الباب والشباك . وكنا نتواصى بالأناشيد فى الإنفاق . حتى نجد قلوبنا فى آخر
الشهر . ولكن لماذا كل ذلك ؟ لم أعرف . ولكنه اخوف قد تسرب وترسب فى
فصوصنا . ربما هذا الخوف الدائم هو الذى جعلنى أنبه إلى شيء ما يعنى أما .
وهذا الأمان لم أجده إلا فى القراءة وإلا فى المذاكرة وإلا فى معرفة الكثير .
وكنت تمليلا متفوقا من المظاهر . خائفا من التداخل .. هذا الانشغال الدائم
بالمجهول . والجهول كنه مخيف . هو الذى جعلنى أتسلع دائما بشيء وليس من

الضروي أن أحب ما أنتلج به ولكني كنت كالذي يخاف من البرد -
ولا أزال - فيضع كل ما يصادفه من ملابس وأغطية . فلم أكن أعني بقيمة
هذه الملابس أو حملها أو ثمنها . إنني فقط أسد الباب في وجه الريح .
والذي كنت أفعله في البرد . كنت أفعله أيضا في القراءة والرغبة في المعرفة
أريد أن أحتس في الكتاب وأنسج بالمعرفة . فقط المعرفة سلاح ولكن لم تكن
متمعة ولا لذة .

وكت أسع - ولا أفهم - أنا من الأشراف فجدي لأمي صاحب ضريح
يزاد . بل في أسرتها أكثر من ضريح وأكثر من ولي وأكثر من رجل صالح .
فهي من أسرة المياز في الشقيلية ودمياط . وفي الأعياد الدينية كان الناس يشيرون
إليها . على أنها متبرون عن الناس فحس أشراف . وكان أحدى لأنى من
الأشراف أيضا . ومن الأولياء وهم يتحدرون من الإمام شمس الدين الشربيني
في مدينة شربين . ولم أكن أفهم معنى لشيء من ذلك .

ولا أنسى يوم أخذنى والذى إلى مسجد في أنى حمص من محافظة البحيرة .
وكان لإمام المسجد اسمه الشيخ روحه . وقدمنى والذى مع كثير من الأعزاز وهو
يقول : ولدى صلاح - وكان هذا هو اسمى في ذلك الوقت ولكن أمى بعد
ذلك رفقت أن يكون لى اسمان - ولدى صلاح هذا قد حفظ القرآن الكريم
والمزمرة النبوية والبردة للبوصيرى وقرا كتب أدب الدنيا والدين والمسيرة النبوية
لابن هشام ودلائل الحيات .

وكان رد الشيخ روحه : إن هنا من دلائل الحيات !
وأعجبني هذا الرد وحفظته على أنه أول مديح بليغ . ولا أعرف بعد ذلك
لماذا كان بعض الناس الطبيين يطلبون منى أن أؤمهم في الصلاة وأنا صعب

ولكن عرفت فيها بعد أنى أفضل منهم لأننى أحفظ القرآن الكريم

ولم أدرك في ذلك الوقت إن كان هذا كل ما يسمعن . فلا أعرف قيمة
ما حصلت عليه . وإنما أنا طفل ذكرته فوية . أو هو عب لوالده وسمع منه
أجمل أنواع الكلام : قرآنا وأحاديث نبوية وشعرا . وحفظ وراة وأسعدته
سعدة أبيه

وعندما سافرتنا إلى طنطا . تملت وحدى إلى جوار مسجد السيد البدوى
ووقفت أقرأ الفاتحة . وأدعوا الله أن يشفى والذى ووالدى . وأن أتبع في مدرسة
السيدة مباركة الأولية . وبعد أن فرغت من الدعاء اكتشفت أنى توجهت إلى
محطة سكك حديد طنطا . فلم يكن هنا هو ضريح السيد البدوى . ورويت
ما حدث . وضجت أبى وكان حريصا على أن يروى هذه النكة لكل الناس .
وكان الناس يطيبون بطيبون خاصرى قائلين : ولكك توجهت إلى الله . والله في كل
مكان !

وإلى أمينة كنت في «جمعية الإخوان المسلمين» . وكنت أمينا للمكتبة .
وألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا . وكان رجلا ظريفا لطيفا . وصفق
لقصيدتى عن الهجرة النبوية . وطلب منى أن أذهب للقائه في المركز العام في
الحلمية الجديدة . وذهبت ولم أستطع أن ألقاه . ولكنه نصحنى بأن ألتقى بواحد
من الإخوان وأضرب إليه أن ينشر قصيدتى . وكنت سعيدا عندما ظفرت بالأخ
وكانت جريدة «الإخوان المسلمين» تطبع في الجوزنار ديجيت . وظلت حتى
الصباح أنا وبعض الأصدقاء واقفين أمام باب الجريدة حتى صدرت . وقلت
في الصحيفة فلم أجد القصيدة . وكانت صدمة وخيبة أمل كبرى . مع أن
الأخ . قد وعدنى . فكيف يخلف وعده ولا يتفد أمر الشيخ حسن البنا

وبعد أصابع قليلة وجدت اسمي على باب مقر جمعية الإخوان المسلمين
بإمسية من المفصولين والذي يرجي ألا يترددوا على الجمعية إطلاقاً. وكانت
مفاجأة مفزعة. وعرفت السب فيها بعد. هو أننا لا تؤدي الصلاة في أوقاتها.
ثم إنما تستغل مكتبة الجمعية للمناكرة وبسبب الكهراء ولا تدفع
الاشتراكات.

وانفصل في أحد الإخوان المسلمين وقدمتني إلى موظف في شبكويل
وقال: لقد حدثت عنك كثيرا.

ولم أسأله وما الذي قاله عني. وذهبت إلى بيت الموظف الآخر. وكان
يسكن في شارع محمد علي. وهو يهودي. ويروج للماسونية في مصر. وذهبت
إليه. وكان قصيد. وقصتي بمرح. وبعد ما أحدهما المرح على وجهه
الحيث لا زوجته ولا أولاده. وأعطاني بعض الكتب الفرنسية. وطلب مني أن
أقرب فيها. وقبت ولم أفهم. ولكن الذي يبرئ جدا في ذلك الوقت أنني
وجدت لأول مرة في حياتي. فأكهة جقة. فأكهة مصنوعة من الحجر
وملونة. شيء عجيب. وهذا الشيء العجيب هو الذي ظلت أحكيه للناس
ومن الغريب أن كل الذين حدثتهم عن هذه الفاكهة لم يتدهشوا. فقد رأوه
من قبل. أو موجودة في بيوتهم. وفقدت حماسي وفوت لسان تحت أسنني. ولم
أعد أحدث عن هذه المعجزة!

ولا أدعي أن هذا الشمع الذي وضعت في أفن. أو الذي كان في أفن.
مدني في مكانه ولكنه تحت دابة. وبته إلى أفن. بعض مدسود. وما
وما رأيت. ولكن ما يزال الشمع في موضعه متينا صلبا يحض أن أحله.
وعندما عدنا إلى الخصورة كنت مبهورا بإمام مسجد «الحبيبة» صوت

غليظ أجش واضح. وكان فحم العبارة. فصبها. والناس يغيثون من كل
مكان ليمعوه. وكان اسمه الشيخ محمود. ولا أعرف لماذا يحرص الناس عادة
على تشويه أحيل. فقد مر في أفن واحد من الناس وقال: إنه أكبر
حسين في الدنيا.

والله! أقطعه بدعشتي فإن تمال الخلية وأنت نزه فوق السطوح.

وهو لم يفر. أو أحدهما على أحد. وأستصح صحت ويلا. وكان من
العصب على مثل في هذه المس الصغيرة أو أضع العصورتين الواحدة إلى جوار
الأخرى. وأبنتها. كيف يكون هذا الرجل مفخرة ومفخرة في نفس
جيد.

وعرفت أن رجل الكنيسة الكاثوليكية يستعملون الظروف أيضا. فعندما
تذهب فذة للإعفاف بخطاياها تسي أمه تكشف نفسها وتبهر أمامه بسان.
كأنى إنسان. وأذكر أن صديقا كاثوليكيًا قال لي: عندما نكتة نقول إن شابا
ذهب يهتف للقبس. فجلس أمامه. ولم ينطق حزينا صادرا. فسأله
القبس ماذا بك؟ فأجاب الشاب لا شيء. قال القبس: إذن لماذا
حنت. هل انت على صفة يمدح جورج؟ قال الشاب

لا

هنا أنت على صلة بينت روفيل!

لا

جيد. وماذا؟

لا

- إذن أنت على صلة بحورجيت بنت صمويل ؟

- لا

- إذن لماذا جئت إلى هنا ؟ قل لي لماذا ؟

قال الشاب : أبدا .. فقط لكي أحصل على هذه العناوين !

o o o

وفي مصر القديمة يوجد في مكان واحد ٢٩ مسجدا و ٢٠ كنيسة ومعبد واحد يهودي اسمه «معبد ابن عزرا» ومن أهم كنائس مصر كنيسة أبي سرجة .. أو كنيسة القديس سرجيوس . وأهم ما في هذه الكنيسة «المغارة» التي اختفى فيها السيد المسيح مع أمه ويوسف النجار وبقي في هذه المغارة ومعهم «حجارة» . وهذه المغارة كانت رومانية

والعجيب أن الأسرة المقدسة عندما هربت من الرومان الذين هددوا بقتل كل طفل ذكر قد هربت إلى مغارة رومانية - وهو شيء بعيد الاحتمال . فلا أحد يتصور أن الهاربين من الرومان سيختفون في مغارة رومانية . وإن كان اليهود يفسرون ذلك بأن الأسرة المقدسة وهي يهودية قد جاءت تختفي في منطقة مصر القديمة التي بها عدد كبير من العائلات اليهودية . والمغارة تحت الكنيسة وهي آيلة للسقوط مع الأسف - الكنيسة والمغارة . وكانت مياه القبطان تعطياها . وكان لأصدقاءه من الأجانب عندما يرون المغارة يصرخون : كيف تفعلون ذلك بأقدس أقداس المسيحية .

بل إن واحدا منهم قال لي : لماذا لم يهرب المسيح إلى أسبانيا أو إيطاليا .. لو فعل لرأيت كيف يحتفل العالم كله بهذه المغارة !

وأذكر عندما سافرنا إلى أمريكا ، ذهبنا إلى أحد مطاعم لوس أنجلوس

وعرفنا أن تحت المطعم يوجد تموضع هذه المغارة ، ونزلنا وقابلنا عدد من الرهبان والراهبات يرتدون ملابس اليهود في أيام المسيح .. وكانت المغارة مكيفة الهواء والصبر . ويبيع من كل حوائج صوت . ثم يردد الموعظة الأخيرة للمسيح . ولما عرفوا أننا من مصر . اقترب مني واحد وبكل دقة سألني هل هذه المغارة تشبه المغارة الموجودة في القاهرة ؟

ولم أقل بل هذا روع وأحمل وبنيت قمت تمام ونسبى مدقة ولم أقل ولا يفتصها إلا شيء من ماء القبطان ليحفظها سحرة وحده من المغارة التي تركناها في القاهرة

وكذا سعداء جدا بما قلت . وراحوا يهتفون أنفسهم على هذا التوقيع . وبين لحظة وأخرى يؤكدون لي : أن هذه شهادة يعترفون بها . ثم طلبوا مني أن أكتب في دفتر هذا الرأي . وكنت والله أعلم أنني كاذب !

وما زال أطفئ على وجه هذه المقدسات أصبح فيها ولا أبطل . كأنني غطيت جسمي ببطقة من التريت حتى لا يلمس الماء جسدي . لماذا ؟ لا أعرف . ولكنني لم أتوقف عن التقل من نداسة إلى قناسة .

وترددت كثيرا بعد ذلك على المعبد اليهودي لابن عزرا . وهو أيضا في مصر القديمة وعلى مسافة قرية من كنيسة أبي سرجة وعلى مسافة مئات الأمتار من مسجد عمرو بن العاص الذي غطته الأثرية والحجارة من الداخل ومن الخارج والطريق إليه محفوف تيمنا باللباس والقتل وشمالا بأكوام الرمال .

ومعبد ابن عزرا فيه تحف لا نظير لها في العالم . فيه التوراة القديمة .. وفيه التلمود .. وفيه «المنورة» ذات الشموع وفيه العبارات المأخوذة من التلمود والتي

تقول «حتى لو كانت أبواب السماء مفتحة في وجه الصلوات . فإن الدعاء
تفتح كل الأبواب»

وكذلك اليهود يهتمون في اجرة آية التي مسمي ويسمونها انفس حوس
وذلك يقبلون من مقاصد الجدية في كسبه من حيا حياة خادمية تقدر بلادين
احيات فيها تحف فنية . وفيه مخطوطات نادرة

ودرس التوراة والتلمود . بعض مئات المصنفات من التلمود . وأعجبي
من التوراة عدد من الأسفار مثل : المزامير وشيد الإيشاد وأرميا وأشعيا .

وظل عدد المتدربين على هذا المعهد يخطون بين اسمي واسم رجل آخر له
نفس الاسم وهو يهودي . وكانت زوجته اسمها جوس منصور صاحبة ديوان
«صراغات» وكانت ابنة لداود عدس وعرفوا فيها أننا اثنان تحمل اسمنا واحنا .
وانقطعت عن التردد على المعهد . ولم أعرف فيما بعد أنهم كانوا يعرفون أننا
اثنان . ولكن لم يهتم أحد كثيرا بترددى على المعهد أو حرصى على المهم .

وعندما كان المعهد . ذلك مرات كثيرة مع أساتذة المعاهد الشرقية والمشرقية
من أمثال نابول كراوس اندى سافر إلى الجامعة العبرية في القدس وعاد معه
مخطوطات نادرة وحاول مقابلة د . طه حسين وكان في ذلك الوقت وزيرا
للمعارف . وضاق نابول كراوس بالمعاملة غير الكريمة وشق نفسه .

ومعنى احياء أن أقول إنه استعار كتابا من مكتبة الجامعة باسمي وأنه لم يردها بعد
ذلك ١

وسافرت أرملة إلى إسرائيل وتروحت متشقة آخر هو صاموون يس الذي
أنف كتابا عنوان «نظرية احوار الفرد في الإسلام» وترجمه إلى العربية د
عبد الهادي أوريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة الكويت

وفي سنة ١٩٥٥ كنت عضوا ضمن وفد مصر في «مؤتمر الحريين» الذي
انعقد في القدس . وكان يرأس هذا المؤتمر المليونير اللبناني اميل البستاني واستطاع
الوفد المصري أن ينحى اميل البستاني عن الرئاسة وأن يتخب الجميع د . فؤاد
جلال .

وفي يوم الجمعة ذهبنا لزيارة المسجد الأقصى . وكان الإمام والحطيب
هو الشيخ الباقوري . وخرجنا من الصلاة ولم نجد أحدينا . ضاعت أو ضللت
الطريق إليها . وذهبت حافيا إلى الفتق . ورأيت لصخرة ومة الصخرة

وذهبت مع الشيخ الباقوري والدكاترة عزيز صدقي وحسين مؤنس وراشد
البراوي ووزير الخارجية المرحوم قدرى طوقان إلى زيارة حائط المبكى . وهو
الحائط الغربى من معبد سبون الذى انهدم أكثر من مرة . الحائط يس عديا
ولكنه في حارة ضيقة وقد نبتت عليه الأعشاب .

وبين الأحجار توجد أوراق . سحبت ورقة فوجدتها بالعبرية . وعرفت أن
اليهود عندما يزورون حائط المبكى يكونون يصرخون ويقبلون من ربه
اخلاص والعودة . وأذكر أنني وضعت في «حائط المبكى» ورقة أضحكت
الأستاذ الباقوري والآخرين . وكانت هذه الورقة تضم أبياتا للشاعر عبد الحميد
الديب والتي يقول فيها :

كأننى حائط كتبوا عليه ...

في آخر الكلمات التي لا يليق ذكرها أو نشرها .

ولم يعجبني هذا التصرف . فقد وقفت إلى جوار الحائط اننى يشتهى ملايين
اليهود أن يلمسوه . وعندما استولوا على القدس في يونيو سنة ١٩٦٧ أسرع

القوات اليهودية إلى تقبيل الأحجار والبكاء عندها كما أنهم هدموا كل البيوت القريبة من «حائط المبكى» بما فيها بيوت أسرة ياسر عرفات . وجعلوا أمامها ميلاً فسيحاً . وقسموا الحائط إلى ثلاثة أقسام : قسم لصلاة الرجل وقسم لصلاة النساء والقسم الثالث لرجال الدين يقرأون ويتأملون . وعلى الرغم من أن رئيس إسرائيل زلمان شازار ملحد في ذلك الوقت . وموشى ديان منحد ، فإنها قبل أحجار حائط المبكى !

وفي بيت لحم زرت كنيسة المهد . وقد تقسمت الكنيسة من الداخل إلى قطاعات لكل فئة من فئات المسيحية . وهناك رأيت المروء الذي ولد فيه السيد المسيح . ورأيت مكان النحلة والتي تحدث عنها القرآن الكريم وهو يتوجه إلى مريم عليها السلام : « وهزي إليك النحلة نساقت عليك رطباً جنياً »

وقبل ذهابي إلى كنيسة القيامة دعاني انصديقان يوسف البنديك ومازن البنديك إلى الغداء . وصعدت إلى بيتهم . وتغدياً وصحكت . وقتنا ما يقال وما لا يقال . وبعد ذلك نزلت لأجد أن كنيسة المهد ملحقة بنفس البيت وأنا كما فوق الكنيسة . وأن أسرة البنديك تملك هذه الكنيسة أيضاً . كيف نفعل ما فعلك فوق هذا الأثر المقدس . ولكنني كنت وحدي الذي أصابه الفزع . أما الآخرون فقد اعتادوا على رؤية ما هو مقدس . فجامت هذه العادة تجرد كل شيء من قاسته . ولعل يقول : يذهب إلى الصلاة متأخراً من يسكن إلى حوار الجامع ! أو لا يذهب لأنه اعتاد على الصلاة والقراءة والأذان . أو ضاق به جميعاً .

ومشيت في طريق الآلام الذي سار فيه السيد المسيح يعمل صليبه والرومان يضربونه واليهود . ورأيت الجسامة حيث تناول المسيح عشاءه الأخير والذي

بذنه . فيه أحد تلامذته يهوذا الأسخريوتى . وباعة الرومان بقروش قليلة .

وقد حاول اليهود بعد ذلك عندما أنتجوا فيلم « بن هور » من تأليف اجترال اليهودي وليامسون أن يبينوا أن اليهود لم يضربوا المسيح ولكنهم الرومان . فظهر في هذا الفيلم الأميرين هور وهو حزين على المسيح ويحاول أن يعمل عنه صبيه ولكن الجثود رفضوا . وهذه أكذوبة طبعاً . ومن أجل هذه اللحظة الكاذبة اتفق اليهود ملايين الدولارات !

ووقف أحد القساوسة يقرأ بصوت حزين والموعظة الأخيرة للمسيح . إن صوته وعباراته تمزق القلب . وتذكرني بما فعله أبو بكر عندما سمع الرسول عليه السلام وهو يتلو الآية التي برئت عنه . البرء أكنمت لكم دينكم وأكنمت عليكم بمعنى ورضيت لكم الإسلام ديناً . وبكى أبو بكر وعرف أن هذه هي النهاية !

وعندما ذهبت لزيارة الشايك . كان في ذهني أنني أمة خفية مصرية ولوحات رائعة على الجدار . وأمام أعظم مكتبة في العالم . وأحضر مكتبة سرية أيضاً . وأن الشايكان أغنى دولة وأقدم دولة . قد استطاعت أن تقاوم كل الأحداث وتبقى كما هي بلا جيوش ولها أموال في كل بتوك الدنيا . وأن الذين يستثمرون أموالهم هم أصحاب الملايين من اليهود . ودخلت إلى كنيسة القديس بطرس . إنها خفية فنية . والقديس بطرس هو الذي هرب من روما خوفاً من الاضطهاد . فلقية المسيح في الطريق . فسأله القديس بطرس باللاتينية : كوفاديس . دومنى - ومعناها أين تذهب أيها السيد .

فقال له المسيح : جئت لأصلب من جديد !

والله اعلم بما في قلبه من المسبح خفي .. انه سوف يصب مداداً في حبره تسده طرس

وعد فليس يدس إلى وجهه من الشهادة .. فما حسه لأول مرة ذلك وقت قصير .

وضمن وفد من القسوسه الصغار دحمت كنيسة القديس طرس ووضعت مريم على رأسه . وتشاء الصدق أن .. ان حدى الى الله بوجده اثنت .. وعشرون شهراً من تحت المذبح .. ووقع يد على رأسه وبنت لظلمه . وتفرق حرد منهم .. يصعب على رأسه .. كذا .. منهم .. من يعرف أنى .. من احد .. من معنى ذلك .. معددا دحمت من كسبة انهم على رأسى عشرات من ايوافين خارج الكنيسة . واخفت الطاقية قطعاً صغيرة في أيديهم .. على سبيل البركة . وعندما رويت هذه القصة على ظهر المذبحه أصديرا عذبا .. من مصه نجحت على رأسى عشرات الأمهات يقبلن مكان البركة ! .

وفي الهند رأيت معبد فشنو وشيفا . ورأيت الأبقار المقدسة التى إذا تمت فى الطريق توقف المرور تماماً . ورائى إذا دخلت محلاً فإن أحدا لا يقربها أو إذا أراد أن يخرجها فإنه يصرخ خوفاً ولا يلمسها . وقد اعتادت هذه البقرة من خوف المسكين على هذا الاحترام والتقدير

لذلك فهي آمنة فى كل ما تنفعه . فهي تعيش وتوت ولا يذبحها أحد . الثيران فقط هى التى يذبحونها . ورأيت الفهود المقدسة والنعابين المقدسة واحشرات المقدسة ورأيت السلام والأمان فى أهل الهند .

وعندما ذهبت بمقالة الدلائل لاما . إله التبت . وكان هارباً من بلادهم قوات الصين . وكان فى ذلك الوقت يعيش فى جبال الهنلايا . وفى

الطريق إليه مررت على حديقة اسمها الحديقة المقدسة . كل أشجارها مقدسة . ومجموع الاقتراب منها وحملون على حفة إلى قدامه الدلائل لاما . وكان يتولى الترجمة رئيس ورواء الدلائل لاما . وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة . وأكرمنى الدلائل لاما وأجسنى إلى جواره على مدى شهر من أنفه الذى يخر وبشره . وطبعى أن يصيبنى الزكم المقدس . وأن أصر أجداده فى سرى . ولكن إجماسى بأننى الوحيد الذى قلبه وصورة هو وأمه ووزراءه . خفف على ولايات الرشح والمعال . بل إن بعض الوزراء حسدن على ما أصابنى . وقال لى : يا غثث : إنا نعيش معه عشرات السنين ولم يلبث هذا الزكاه العظيم والمعال المقدس والرشع الأذى !

إيه إيه التبت يختارونه بالصدقة ويخمنونه مقدسا وعندما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره جنمه أو قتله . فهو الجحد فى عدم الذى يعرف من صيموت . ولذلك فحياته تعيسة . وسألت أحد .. ان التبت قد أحسبت بشيء من البركة . فقلت : سبحان . وبعد الله لى ..

واستوضحونى أكثر فقلت : إن اندم يغلى فى عروقى .. وإن القوى الشيطانية تخرج أضارها من كل مكان فى جسمى .. وإن وزى سوف يتفنى حالاً : لأن الماء ينزل من أنى باستمرار

ولم أكن كاذباً فقد التفت إلى كل أعراض الأسفلوزا الإلهية بسرعة أعرفها . وأعانى منها . ولا أزال . وسوف أضل مدى الحياة !

وأحسنت أن الشمع قد مذن تماماً وأنه بدأ ينتقل إلى عبنى أيضاً . يا .. واحد عياب وإنه فى نفس الوقت !

بل إن فيلم خالد بن الوليد عندما عرض هناك كانوا يدخلون السينا بعد أن يغلقوا اخذاء !

ولما ذهب شيخ الأزهر الأستاذ تاج ، كانوا يقبلون السيارة التي يركبها . واندعشوا وما زالوا مندهشين ، عندما وجدوا بعض رجال الدين المصريين قد ناموا أثناء جلوسهم معهم .. وأن نومهم كان مسموعا صارخا . لأن هذا يخالف الآية الكريمة التي تقول : « تتحرق جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا وما رزقناهم بنفقون » .

وفي باريس دعنى إمام المسجد سى قدور بن غريبط إلى صلاة العيد . ودخنت واكتشفت أن بعض السياح الأمريكان والاطالين وبعض الفرنسيين قد تسللوا يفرجون على أئمة يركعون ويسجدون ويكبرون . ولا يفهمون شيئا .

بل إن واحدا منهم قد وضع يديه في جيوبه وصيحارته في فمه . بهض أحدا ونهب إلى ذلك . فأطفأ السجادة وأخرج يديه وجلس على الأرض . وراح يقلب في إحدى الجلات . إنه هو أيضا ملأ أذنيه بالشمع . فلا شيء يسمعه . واندنى يسمعه لايهزه . فهو لا يعرف من أمر هؤلاء المسلمين شيئا . ولا يهيمه أن يعرف . وإذا أراد فلا وقت . وإذا كان وقت فلا قائدة .. فهو مسيحي والاسلام !

وفي العراق زرت النجف وكربلاء .. وهذا أقدس قدسات الشيعة فعلى بن أبي طالب عليه السلام قتل وأولاده من بعده .. وارندى الناس السواد حدادا على ذلك . وارندى رجال الدين السود أيضا . والمساجد في غابة الروعة . وتحت قبابها أكوام من الأحجار الكريمة جاءت من كل

مكان .. وروائح البخور والعطور تنبعث من أرض المساجد ..

وأرض النجف وكربلاء طهور . ويصعدون منها المساجح . ويحى الشيعة من إيران حفاة وعرة . ويحيون المساجيد الفاخرة يبيعونها ليعيشوا من ثمنها . ورغم الخلافات الحادة بين إيران والعراق . ولكن لاجية روحية للشيعة بعير زيارة الأراضي المقدسة في النجف وكربلاء . وقد حلزونى إذا دخلت المسجد وصلت الأضلع يدي مضمومتين على صدرى .. فإني أهل السنة هم الذين يفعلون ذلك . وبالفعل امتدت يد من جوارى تلك بدى .. فقد نسيت . وقيل إننى لو فعلت ذلك في مسجد آخر لطرودونى من المسجد . وأعتقد أن هذه مبالغات وتشويه لعادات وتقاليد الشيعة !

ونحن في مصر لانعرف هذه الفوارق المذهبية بين الشيعة والسنة .. فالمصريون المسلمون من أهل السنة ومع ذلك يقيمون صلوات ألعباد ومولد النبي ورمضان كله في مسجد الحسين .. ويرتدون على مسجد السيدة زينب والسيدة فاطمة والسيدة نفيسة . ولا يخطر على بال أحد ما علاقة كل هؤلاء الأولياء بعلى والشيعة ؟

وفي طهران ذهبت أتفرج على معبد النار أو النور .. المعبد غرفة واحدة . وفي منتصف الغرفة غرفة زجاجية في داخلها قنديل مشعل . والقنديل يستمد حاقته من الزيت . ومفروض أن هذا القنديل لا ينطفئ أبدا ، مثل شعلة الجنيلى المجهول .

وعلى المؤمن أن يجلس على مقعد وأن يظل ينظر إلى هذا القنديل ويتذكر في التكون . هكل شيء فيه نور ونار والله هو هذا النور وهذا النار . وليس

التعديل إلا زمرًا لذلك . وما دام الإنسان غير قادر على أن يرى الله مباشرة .
فينظر إلى ما رمز له .

والتعديل صفة إنسان وقدم له الزيت إنسان . ويجلس أمامه إنسان في
حالة دعوى . في هذا التعديل تتجلى دفة الله

وجاءت رجل الدين وقد نزل من سيارة محملة . وقد ارتدى البيجاما
والشيش . وفي مكان محاور توجد إدارة العبد . ومثما تتعالى ضحكات
ناعمة . واقتربت لأرى أربع فتيات جميلات جئنا يعين الورق !

وبالفرد من هذا المعد محلات بيع صور للنج عليه السلام ولعن بن
أبي صالب . والصورة مصسوعة في البياض . إذا أملت إلى اليسار رأيت وجه
الرسول . وإذا أملت إلى اليمين رأيت وجه علي . وبوحدات كبيرة حائطية
الصورة الرسول والإمام علي - كيف ؟ هنا ممكن !

وفي طوكيو رأيت المعابد الكثرى هناك . وفيها نيران مشتعلة ليلا ونهارا .
ورأيت عددا من المعابد البسيطة التي تتعلق في مداخلها مقشقات . ومفروض
أن يزر الإنسان هذه المقشقة . فتكس خطايا . واليابانيون يفعلون ذلك في
الهدم والابواب

والرجل الياباني من الممكن أن يتفق دينين وثلاثة أديان في وقت واحد .
فيكون يوسو وشنتوي أو كشتوشيا وشنتوي ومسيحي . وليس ذلك غريبا . ولكنه
صحيح حد في اليابان

واليابانيون يعملون جدا . وعددهم هذه العبقرية على ما طين كل شيء .
ويعتقد النوف الياباني . فبالا من أن يذهب كل اليابانيين إلى المعابد . فإنه

يقمبون لأنفسهم معابد في البيت . . ثمادج صغيرة لهذه المعابد . معابد
ترازستور . ويصلون أمام هذه المعابد ويخرجون وقد أدوا ما وجب عليهم نحو
ربهم !

ولو سقط هذا المعبد الصغير لأي سبب . فإن الرجل الياباني يشتري معبدا
آخر ويضعه في نفس المكان . تماما كما يضع مسارا في حائط . . أو يضع لوحة
بدلا من لوحة . فهو يعلم أن كل هذه رموز . فهو لا يصل للمعبد . ولكن
يتהל أمامه هو وأهل بيته . فالعبد الصغير يوجد بين أفراد الأسرة . يوجد
اتجاههم وصلاتهم !

وأجمل ما قرأت في كتاب الفيدا . دعاة الديانة الهندوكية هذه
العبارة : أيا كانت وجهتك . أيا كانت قبلك . أيا كان وثلك ومعبودك فما
الذي أستجيب لدعائك . . إنني وراء كل شيء . ووراء كل رمز !

.. ..

وفي مدينة هوليود كنت على موعد مع الملكة نازي . فقد تلقيت برقية من
فأخبار اليوم . تطلب مني أن ألتقي بالملكة نازي وأجرى معها حديثا . وقابلت
رياض غالي زوج الأميرة فتحية . ووجدت رياض غالي ممزق الملابس
حريشا .

ولم يفهم لماذا هو خارج مصر مع أنه لم يفعل أكثر من تهرده على الملك
فاروق وهز أركان الأسرة الملكية وحطم قلب الملك فاروق

وهو لذلك لا يستحق الطرد من مصر . وطلب مني أن أعلنه بشرى ألا
أكتب حرفا واحدا عنه أو عن الملكة نازي . ووعدته . وقال إنه ليس في حالة

تسمح له بالدفاع عن نفسه إذا قلت عنه أى شيء. ومعه حق. ومالك حرم.

وسألتني هل أحب أن ترى شيئاً بعد
من أريد أن أرى سبب المصري

وسألتني : ومن هو المصري
ولم يعرف رياض على. وأنه لم يفكر في ذلك

واسم «المصري» هذا ليس مقصوداً به مواطناً مصرياً. وإنما المقصود هو
موسى عليه السلام لأنه مصري. وصاحب السبئية يهودى. وفي هوليود كل
الشركات السينمائية يهودية. فالشركة مترو - هولدين - ماير - هؤلاء الثلاثة
يهود. وإخوان وارنر - ثلاثهم يهود أيضاً

وكان من الضروري أن أفرج على أحد المعابد اليهودية. ووجدت
واحداً. وعرفت أن في هوليود معابد كثيرة وفي أمريكا كلها مئات. ولم أحد
شجاعتي عندما قررت أن أدخل أحد المعابد. ففي أمريكا يشعر الإنسان بأنه
صغير. فهو قليل في دولة كبيرة ومواضعها أكثر من ٢٥٠ ميوناً. واناس
يمشون بسرعة. ولا يشعرون بك. ولا يعرفون من أى البلاد أنت. وهم
يطرون إلى بلادك على الخريطة فيجدونها مساحة صغيرة... ثم يدرك أنك أنت
من الفقراء. تمشي على رجليك ولا عندك سيارة ولا طيارة ولا مرزعة ولا أنت
ابن عمدة أو محافظ أو عضو في مجلس الشيوخ... ثم إنك لست من شيوخ
الكويت أو أمراء السعودية. يعنى أنت ولا حاجة!

وبهذا الشعور بالهوان الذى لا يمر له. انتزعت كبريائى وشجاعتي
ودخلت المعبد. ووجدت عند «قدس الأقداس» مجموعة من الطوائف.

. فوضعت واحدة على رأسى وقابلنى الاخاخام وسألتني : من مصرى؟!

وأدعشتنى ذلك. ثم راح يكلمنى باللغة العربية. فهو لم يتظر أن أجيب
بأننى من مصر أو من أى بلد آخر كأن أقول : إيطاليا.. أسبانيا من مراکش.

وسألتني : هل قابلت أحداً من اليهود هنا!...
قلت لا -

- لأنك لست في حاجة إلى البحث عنهم. إنهم هنا في كل مكان. أين
تسكن؟

- في فندق روزفلت.

- أصدقاء من اليهود.

- وأين تتناول عشاءك

- في شارع غروب الشمس (صنت بوليفار).

- كله من اليهود.

- وهذا اللواء ضد الزكام من أين!

- من أجازخانة قيتامين للجميع.

- إنها ملك أخى!

- كم تبقى هنا

- أياماً

- وتساخر إلى نيويورك على أية طائرة.

- على طائرة يهودية طبعاً

- نعم

- كنت أريد أن أفرج على هذا المعبد.

- به متواضع جدا . عذكم في مصر القديمة معبد ابن عز - تحفة
حاولت شراء ما فيه . ولكن لم استطع .

- لماذا ؟

- هل نعصب ؟ قلت لك الحقيقة ؟

- الحقيقة لا نعصب أحدا

- لا أوافقك على ذلك .. ولكن سوف أقول لك .. إننا فكرنا كثيرا .

وأخيرا استقر رأينا على أنه لا داعي لنقلها من مصر مادامنا سنعود إليها

وتضايقت جانا وقلت له : نحن على استعداد لأن نقل إليكم هذه

المتحف حتى لا نراكم بعد ذلك .

- وبعد ذلك تريد أن تفرج على المعبد .

- نعم ذلك أريد أن أعرف

- أنت من طراز رادو . تستطيع أن تدوس على نفسك من أجل أن

تعرف

- أحبب أن أفعل ذلك الآن

ولا أظن أنني رأيت بوضوح أو فهمت ما قاله الأخام بعد ذلك . ولكن

حاولت أن أثبت له أن الشيء قاله لا قيمة له . وأنه حاول إغضابي على

لا أكمل الحديث معه ، أو على أخرج دون أن أرى أو أعرف ..

وعندما ودعني عند باب المعبد قال : لم تضع وقتك . وإن كنت قد

غضبت من هذه النصيحة .

- وقاحة لا صراحة !

وسأنتي رياض غالي : إن كنت قد استمتعت بما رأيت . فقلت : بما

أريت هم ولكن لم سمعت لا !

ويبدو أنه كان يتوقع شيئا من ذلك . ولم يشأ أن يصدق من مره من

المعرفة !

ولم أزر مسجد السيدة زينب ومسجد الحسين إلا بعد عامين فقط . فقلت

كانت أمي مريضة . وتصويرت أن هذه الزيارة ستخفف عنها وبلائها .

وذهبت ودعوت وتذرت . وجاء أمر الله واستراحت أمي من حياتها .

وكبرها الله وشرفها . وأعطها على مرضها الدواء والعلاج .. وكان الإغماء

الطويل مقدمة لنراحة الكبرى فماتت وهي لا تعرف إلا أنها نائمة !

وفي أمية مسجد أمم نادى بنك مصر . اسمه مسجد الشيخ أبو صرطون .

وكثير من الناس يترك هذا الرجل اعجوب . وترددت عليه كثيرا . ووقفت إلى

جواره وفأنت ودعوت . واستجاب الله لكثير مما قلت . والله أعلم كيف ؟

وسيقى الأصدقاء إلى كنيسة القديسة تريزا بشبرا . وألوف المسيحيين والمسلمين

يتكئون بها . ويندرون جا . ويستجيب الله لدعواتهم . ولا أعرف كيف ؟

وذهبت إلى كنيسة القديسة تريزا وتحدثت على الناس . ومنحصرت بوجه

الصافية وعلمها وهواتها على الناس .. وإيمانها العميق . ورأيت نذورا بأسماء

عدد كبير من المسلمين . وهنا طبعي . فصاحب الحاجة أو المشكلة يريد أن

يجد حلا عند أي إنسان أو في أي مكان .. والله في كل مكان . والله يودع

سره وقدرته في قلوب كثير من المؤمنين .

وفي سنغافورة دخلت أحد المعابد الصينية . لا أعرف الفرق الواضح بين

المعبد الكونغونشي والمعبد البوذي . فهناك نقوش ونماثيل وبحور وعطوف

وأصواء . وسألتني أحد رجال الدين : هل لك شكوى ؟

لم ألهم . وسألت ما اندى بقصده ؟

فقال : هل لك شكوى من ألم في جسمك .

قلت : أخاف من البرد . فإذا أصابني أقام في جسمي طويلا

قال : إذن امشي ورائي .

ومشيت وراءه . وكلما اقترب من نهاية المعبد وأمام تمثال كبير نبوتا لمس

كتفي . ثم عاد فلمس ركبتي . ثم عاد فمسح على رأسي

وسألتني هل صاع منك شيء ؟

فدعشتني أسوار صلت . فعلاصاع مني أكثر من ٣٠٠ جنيه

سألتني كيف ؟

قلت : لقد ألقي سوكارتو العملات من فئة المائة روبية . وكانت كل

فلوس من هذه الفئة . على لحقة واحدة لم أعد أملك إلا القليل جينا

فقال : لن أرد إليك كل هذه الأموال وإنما بعضها فقط . . . مائة جنيه

فقط .

- كيف ؟

هذا شأني . فإذا عادت إليك أرحو أن تمر على المعبد مرة لتخبرني بذلك

وتضع جزءا منها في صندوق التبرعات

وخرجت شاكرًا ولا أضلق شيئا مما يقول .

ولكن المعجب حقا . أنني لم أعد أشكو من أوجاع البرد إطلاقا . وليس

هذا وهما . ولكنها الحقيقة . . . ثم إنني وجدت في حافظة نقودي ما يعادل مائة

جنيه . لا أعرف من أين جاءت . وذهبت إليه أشكره . فأخبرني رأسه كأنه

يعرف . ثم أشار إلى صندوق التبرعات . وأعجب ما حدث هو أنني اكتشفت

بعد أن خرجت من المعبد أنني - دون وعي - قد أودعت كل النقوس التي

عزرت عليها في حافظة نقودي !

ولم أذهب للرجل بعد ذلك !

• • •

ورأيت عددا كبيرا من بيوت ومقابر العظماء الذين أحترمهم . فقد قرأت

لهم وأحببت بأسي لهم .

رأيت فرديناند في باريس . . القبر تحت والناس ينظرون إليه من فوق .

والحكمة في ذلك . أن ينجي الناس رؤوسهم إذا نظروا إلى قبر عبقرى الحروب

والسياسة والغرام والقانون

ورأيت قبر الشاعر دانتي في مدينة فلورنسا وقبره عبارة عن غرفة خائفة

ولكثرة الزحام عليها أصبحت رواثها كريهة . لعل الذي صمم هذا القبر أراد

أن يذكرنا بالجحيم الذي كبه دانتي .

وكان يرافقتي د . حسن عثمان الذي ترجم الكوميديا المقدسة لثلاثي

بأقسامها الثلاثة : الجحيم والمطهر والفردوس . وطلبت إليه أن يشرح لي شيئا .

أن يخليني عن الشاعر وتبعت في الرجاء . فجاء رفضه جزءا آخر من الجحيم !

ورأيت بيت الشاعر الألماني جيت في مدينة فرانكفورت على نهر المين .

ورأت أين يكتب . أو على الأصح أين يقف ليكتب . فلم يكن يكتب إلا

واقفا . وأين يأكل وأين ينام . وكان يرافقتي د . مراد كامل أستاذ سمات

الشرقية والذي يتكلم عشرين لغة . من بينها الأرامية والآكادية والعبرية

واحبته وحبيته والفضيلة الخ . وم يكن د . مرد كامل متحمسا لهذا الاحترام اعاش
الذى امكنه لأمر شعراء ألمانيا . وكان العقاد يقول إن الشاعر جيته ليس إنسانيا
فمنذ كان وزيرا للمعارف في إمارة فيمار فصل الفيسوف فخته من عمله ، لأنه
خالفه في الرأي .

ولكني كنت مبهورا بما أراه وما أسمع عن شاعر عظيم أحببت فنه . ولم
أحب أخلاقيته . وقرأت أجمل ما قيل عنه في كتب «محاورات أكرمان»
التي سجلها سكرتيره أكرمان . فأجاب جيته عن ألوف القضايا في غاية
الوضوح والفخامة والعمق .

وفي مدينة تينجين زرت البيت الذي عاش ومات فيه الشاعر الألماني
هيلدرن . عاش ثمانين عاما ، نصفها في مستشفى الأمراض العقلية .

وكن يرافقتي د . عبد العزيز حجازي . وعندما وقفنا عند البيت خرجت
سيدة وفي يدها سلة لتفصيل . ولم أصدق أن هذا بيت الشاعر العظيم الذي
يعتبر من أروع شعراء ألمانيا ، والذي ألف ملحمة هيبرون ، تحفة الأدب
الألماني في كل العصور .

ويبدو أننا وصلنا متأخرين بعض الوقت ، ولكن السيدة أشارت بيدها إلى
غرفة على اليسار . وقالت : هنا كان سريره . وناقذته التي تطل على نهر
السالزاخ . وهناك على الضفة الأخرى «حديقة التأوهات» .

وذهنا إلى البيت الذي كان يسكنه الفيلسوف هيجل أبو المثالية الألمانية
والذي ترمد عليه كارل ماركس فاستفاد من فلسفته كلها . واستخدم
مصطلحاته وفلسفته التاريخية . ولكن كارل ماركس يقول : إن هيجل جعل
الفلسفة كلها تمشي على رأسها فَمَا أنا فقد أوقفها على رجليها !

وجاء الفيلسوف اندركي الوجودي سيرن كركجور وثار على الفيلسوف
هيجل واستخدم مصطلحاته كلها وجعلها سهام مسومة استقرت في قلب
الفلسفة المثالية .

وأعترف بأن رأسي اهتز كثيرا ، وأن أكثر الشجع قد ذاب في أذني فسدما
تماما . ثم بلأ يدوب خارجا من أذني . فأنا أشعر بأن هؤلاء الأعضاء بشر .
لهم وجود وضع كتب ولم نظرات وآلام . وأنهم فكروا وتعذبوا وأنوا بشيء
جديد . أعرفه جيدا . ولذلك أقدرهم تقديرا عاليا .

~ ~ ~

وفي مدينة نابلي ذهبت إلى اللواء حسني نجيب لزيارة بيت الفيلسوف
الايطالي بندتو كروتشة . الرجل الذي عرض عليه أن يكون أول رئيس
لجمهورية إيطاليا بعد سقوط الملكية فرفض .

كما رفض العام الرياضي اينشتين أن يكون رئيسا لإسرائيل . وكما رفض
لعلي السيد أن يكون أول رئيس لجمهورية مصر . وكان كروتشة قد مات .
وأردت أن أرى بيته ومكتبه واهبته . ورأيت المكتبة ورأيت اهبته وقلت لها
إن بعض مؤلفات الفيلسوف العظيم قد ترجمت في مصر . إن واحدا من كتبه
واسمه «الخلاصة الجلية» قد ترجمه اثنان من الأصدقاء هما د . سامي الدروني
ود . بديع الكرم .

وقفت : إنني أيضا ترجمت بعضا من كتابه «التاريخ قصة أخرية»
وأهدتني إحدى بناته كتابه عن «علم الجبال» وكانت عندي نسخة من هذا
الكتاب . ولكن أحسست أنني أخذت الدنيا كلها . وفضل هذا الكتاب

لا أفتحه ولا أقب فيه .. احتراما وإعجابا بصاحبه !

وفى سالزبورج بانتمسا زرت البيت الذى ولد فيه الموسيقار المعجزة موتسارت . وصعدت الدرج . ورأيت الغرف الصغيرة وأرواق الطينج النحاسية .. والبيانو الصغير . وخصلة من شعره ..

ولما ذهبت إلى فيينا ورأيت مقبرته .. أو يقال إنها مقبرته .. وعرفت أن زوجته لم تسرق جنازته . وقبل في ذلك الوقت إله مريضة . وقبل إله كانت نخوته .. وصدر حديثا جديا كتاب يرى هذه الزوجة . فقد اكتشف أحد علماء الأورصاد أن الجو يوم وفاة موتسارت كان عاصفا رعديا وكانت الأمطار غزيرة حتى أن أحدا لم يستطع أن يمضى في جنازته . ثلاثة فقط . ولم يكن في الإمكان أن يذهب وراءه أحد ..

وبكيت على عبقرى الموسيقى ..

وفى مدينة بون بألمانيا رأيت الميت الذى عاش فيه الموسيقار العظيم بيتهوفن . هنا كان يؤلف . وهنا كان يحس . ثم هذه سماعات صغيرة وكبيرة وكبيرة جدا كان يضعها فى أذنيه عندما أصيب بالضمم فى آخر أيامه .. ثم باخون . فقد كانت الفرقة الموسيقية تعزف أحد رواثه . عندما رأى الناس يهللون فظن أنهم يسخرون منه ، فكاد أن يفقد عقله

وقد فكر فى الزواج مرة بعد مرة ولكن الفتيات كن يهرين منه . لأنه عنيف وحاد المزاج وعصبي . ولا يغتسل كثيرا . ولا يريد أحدا أو شيئا يشغله عن قه .. مسكين عاش غناء ساحرا لآذان الناس . ليفقد أذنيه بعد ذلك !

وهزنى قصته وحياته وأمأساته .

وفى هافانا بكوبا رأيت انيت الذى عاش فيه الأديب الأمريكى متجواى حديقة واسعة ما تزال فيها الغزلان . البيت من دور واحد . نخفة . وفى إحدى الغرف عشرات من الأحذية تجاورت وتكدست - كما كان يفعل العقاد

وكان يشرب كثيرا حتى لا يفيق . ولكنه عندما يكتب كان يصعد إلى أحد الأبراج . وكان يكتب بعشرات من أقلام الرصاص . وأطلق على نفسه النار ومات . تعب من الحياة لم يفهم كل ما يريد أن يعرفه . يائس من الإنسان . حزين على أن عمره قصير . والذي يريد أن يقوله كثير .

والحكمة اللاتنية تقول : العمر قصير والعلم طويل !

وأنه لا أمل فى نجاة الإنسان من الإنسان . ولا أحد يستطيع شيئا لأحد . والدنيا لا يصلحها كاتب ، ولا ألف كاتب . وإنما يصلحها نبي أو من هو فى مقام الأنبياء !

~ ~ ~

وفى مدينة رينيو على شاطئ لريفيرا الإيطالية أقدم الشاعر الإنخيرى بيرون . وجاه الشاعر الإنخيرى شيللى وغرق فى المياه التى تطل عليها المدن الجميلة : بورتو فينو ورابالو وفورتيزو وسانت مرجريتا . وأروتا . وفى أحد البيوت قيل لنا : هنا أقام .. وهنا نام .. وهنا أحب ... وهنا كتب . وهنا نقلوا جثته .. وكان شابا عظيما . وكانت له مأساة . فن الذى لا يعزى على شبابه وعبقريته ؟

وفي لتجراد زدت بيت الشاعر العظيم بوشكين . هنا مكبه . وهنا سريره الصغير . بل هنا هو سريره فقد كان ضئيل الحجم . وهو من أصل أفريق مثل الروائي الكسندر ديماس ومثل الفيلسوف أنبير كامى . وقد دخل الشاعر بوشكين في صراع وفي نزاع . وكان نصيبه الموت .

وفي موسكو قبر لينين . أهم معالم موسكو . وأهم ما يفعله الرأى للاتحاد السوفيتى هو أن يقف في الطابور الطويل الذى لا ينتهى ليدخل قبر لينين . ويلق نظرة على جسمه الذى تمعد . والذى لا يزال أحمر اللون كأنه مات بالأمس مع أنه مات سنة ١٩٢٤ . ولا يتساءل الناس هل هو لينين أو نموذج من البلاستيك أو أن الروس قد تقدموا في فن التحنيط ، كما كان الفراعنة من ألوف السنين . لأحد يسأل . ولا ضرورة . وإنما المهم أن يجد له مكانا في الطابور . وأن يدخل خطوات وبدور وينظر ويخرج ويتحدث بعد ذلك !

ولابد أن لينين كان عقيرة ثورية فذة . فقد استطاع أن يقلب الأوضاع وأن يدر وأن ينفذ وأن يجد إجابات على كل سؤال وإشكال .. وأن يكون بذلك آخر الفلاسفة الشيوعيين ، حتى جاء من بعده ماوتسى تونج وأضاف جديدا إلى التطبيق الشيوعى !

~ ~ ~

وفي ميونيخ بألمانيا الغربية تناولت غنائى وعشائى في حانة البيرة الشهيرة التى كان يعقد فيها هتلر اجتماعاته السياسية . وفي برلين الشرقية رأيت أنقاض قصر المستشارين في الشارع الذى كان يعرف باسم « أشجار الزيزفون » والذى أصبح بعد ذلك يحمل شارع ستين . ثم تغير إلى اسم شارع ماركس أو شارع الشعب - لا أذكر بالدقة . وفي قصر المستشارية عقد هتلر زواجه على

إيفاريون . وانتحر هو وهى وانتحر أيضا وزير الدعاية جيلز . فقد أعطى السم لأطفاله ثم لزوجته .. ثم أطلق على نفسه الرصاص . ولم أرث لحاح هتلر . فقد كان عبقرىا شريفا . وكان دمويا . أباد عشرة ملايين من جنوده على طعمه وعلى بجده الشخصى ودفاعا عن نفسه .

ورأيت سجن داخآو بالقرب من مدينة نورنبرج . في هذا السجن أحرق هتلر اليهود وخصومه السياسيين . ولكن استطاع اليهود أن يؤكلوا للعالم كنديا وإرهابا بالسلاح .. الأمريكى ودهوس الأموال الأمريكية أنه قتل منهم ستة ملايين .. ومن الغريب أنهم جاءوا يطلبون التعويض من العرب .. كأننا نحن الذين ذبحناهم وأحرقناهم - مع الأسف لم استطع ذلك بعد .

* * *

وكنت الصحنى المصرى الوحيد الذى حضر اجتماعات « اجمع المسكون » . وفي بيت سفيرة لدى الفاتيكان محمد التاجى التقيت بعدد من أمراء الكنيسة الشرقية في مصر ولبنان .

وكان اجمع المسكون يناقش قضيتين : الأولى : هل البابا معصوم من الخطأ ؟

والثانية : يناقش الوثيقة التى تقدم بها الكاردينال الألمانى والتي يطالب فيها بترثة اليهود من دم المسيح . مستندا إلى قول المسيح بأنهم لا يعرفون - أى إن الذين عذبوه لا يعرفون من هو . وإلى أن قضية صلب المسيح قديمة جدا . وأن الصلب تم في ليلة مظلمة عاصفة

وأما لابد أن يكون قد مات من الألم ثم رفع وعصمه يسر الآلة

القرآنية التي تقول «وما قتلوه يقينا» . على أن الصلب لم يتم حقيقة . وإنما هو مات من شدة الألم - وهذا رأى د . طه حسين أيضا ، وقد سمعته منه .
وقبل أيضا إذ كان الرئيس الكاثوليكي كهندي قد قتل في وضوح النهار .
ولم يبتد البوليس حتى الآن إلى القاتل الحقيقي . فكيف يقال إن أحدا على يقين مما حدث للمسيح منذ ١٩٤٠ عاما .

وإذا كان يهود القدس هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، فما شأن أحفاد الأحفاد !

كلام قبل . وأموال دفعت وتمت تهيئة اليهود من دم المسيح . ولم يعد انكاثوليك يلعنون اليهود في صلواتهم . ولكن طلل الأرثوذكس يفعلون ذلك !
وكان براقى الأب فتواي ، أحد رهبان الدير الدومينيكي في القاهرة وأحد المشتغلين بالفلسفة عموما . والذي ألف جمعية الإخوان الصفا وخلان الوفاء .

وفي ذلك الوقت كان اخو باردا ، كنت ارتدى بلوفا أسود ، وينظفون أسود ، ويأطو أسود .. وكان الناس ينادوني : بأدى .. أى : أبونا - على نتي بهذا الزى أقرب إلى رجال الدين . ولو رأوا ما في يدي من كتب ومشتريات لتحققوا من أتي فعلا من رجال الدين المسيحي . أو على الأصح من المتابعين له

ولم تنبه دهشتي من أن يكون أنبايا معصوما من الخطأ . لأنه ظل الله على الأرض - كل ما يفعله وما يصدره صواب ولا راد حكمه أو قضائه - هل هذا ممكن ؟ وإذا أمكن هل هذا معتول ؟

وفجأة وأثناء إحدى ندوات العقاد سألني : إن كنت رأيت مسجد أبي العباس المرسى في الإسكندرية .
فقلت : لم أراه .

قال : اذهب يا مولانا وانفرج عليه .
ولم يقل شيئا أكثر من ذلك .. وبعد بضعة بيومين سافرت إلى الإسكندرية وتأملت كثيرا في المسجد . ولم أجد شيئا غير عادي . وإنما لاحظت فقط أن بعض الآيات القرآنية قد كتب خطأ . ولم تصحح أخطاء هذه الآيات إلا منذ وقت قصير جدا

وعدت أقول للعقاد : إنني ذهبت ورأيت ولم أجد شيئا غير عادي . فقال : ولا حتى نفسك !

قلت مستدركا : طبع شيئا من الوفاة والعصف على هذا الرجل الضيق فقال العقاد : يا مولانا .. إن حياة الرجل أحسن من مسجده ومن صرحه .. وأحسن من هؤلاء الدراويش

ثم قال العقاد : إن الشيخ أبو العباس المرسى مسئول عن وقوع المصريين في أخطاء تدل على جهلهم .. وأنا أعتقد أن كل واحد اسمه : مرسى فمن المؤكد أن أباه جاهل تماما . لماذا ؟

وقال العقاد إن أبا العباس المرسى سمي المرسى نسبة إلى مدينة مرسية في أصبانيا . فإذا جاء واحد وأسمي ابنه المرسى كان ذلك دليلا على أنه لم يفهم معنى كلمة المرسى أو يعرف كلمة مرسية !

وقال العقاد : أنا زرت مساجد كثيرة .. لم تبهني العارة ولا النقوش ولكن مصير إحساسي بالعمضة نابغ من داخلي .. فأنا أتذكر حياته

وجهادهم وعلاهم مع الناس .. ولذلك أشعر بالحزن وانغطف والاحترام في وقت واحد !

وهنا هو ما أشعر به .. فأنا أمام هذه الأحجار أو اللوحات أو التماثيل أستحضر حياة هؤلاء البارزين في الإيمان والقوى والزهد والعلم والفن .. واستحضر صورهم أو حياتهم أو جهادهم هو الذي يعمل قلبي ينحن لهم .. فإذا اغنى القلب تساقطت عليه الدموع .. وكأنها ترمي عليه .. أو كأنها تغل الأرض التي آوت الأجسام الكريمة العافية السامية .

وعندما توفيت أمي منذ عامين أحسست أنني ضلل فطموه فجأة وحرموا عليه المراضع كلها .. فلا لبن ولا ماء ولا صدرا حنوناً .. ولا معنى لأي شيء .. أعمته .. فقد كان يعني أن أكون عندما تريد أمي .

فلا معنى للحنان إلا عليها .. ولا معنى للامتنان إلا منها .. ولا معنى للوفاء إلا البر بها .. إنها تعبت وحق لها على أن أفضل أعطيها وأن أكون لها .. لديها ترضى .. وكانت .. يرحمها الله .. راضية دائماً

وندمت بعد وفاتها أنني لم أفعل كلنا وكنا .. وأنتي لم أجلس إليها طويلاً .. وندمت على أنني لم أفصح أن أترفع منها شيئاً تربده بعد وفاتها .. لم نوصي شيء .. وبت كانت تطلب مني أن أجد بلى من نفسي .. ولا أعرف كيف .. وأن أهم بصحتي .. وأن أدفنها بعيداً عن أقاربها وعن أقاربي .. وألا ينشئ في حداثها فلان وفلان من الأقارب والأحوة .. وحرمت ومنسها

وأصبح قبرها مزارى .. كل يوم .. ثم كل أسبوع .. ثم كل يوم ثم كل

أسبوعين .. ثم كل يوم .. وتعت من زيارتها .. فأنا لا أستطيع أن أمسك نفسي عن الدموع والبكاء والويل .. وأنا أعلم علم اليقين .. أنه لا أحد هناك .. لا أحد .. هي تراب .. لاشيء هناك .. وحرصت على أن أجعل قبرها أيقاً .. وأن أزرع الأشجار كأنها تنام في ظلها .. وقبر أمي هو المكان الوحيد في هذه الدنيا الذي أمسكته .. ومنذ أكثر من عشرين سنة ذهبت مع الفنان حسين سيكار والفنان عبد السلام الشريف تشتري قطعة أرض في عزبة النخل .. وكان المتر في ذلك الوقت بخمسة قروش .. ولم أشتري .. وكنت أقول : أغنى أن يكون في موطن قدم أظف عليه وأجعل من حوله سوراً وأكتب عليه اسمي .. فتمت أن تكون في قطعة أرض باسمي .. وماتت أمي ليكون اسمي على قطعة أرض في مصر الجديدة !

فما الذي هناك في أي قبر أو متحف أو مسجد أو كنيسة أو معبد يهودي أو يودي أو كينوشى أو شنتوى أو زيادشنى .. وما الذي هناك لاشيء .. لأحد .. فكل شيء .. في المكتب .. ومن الكتب يتوعد احب واحسان ولا احترام والكراهية - وكل ما يراد أمام أعينهم .. مور مشرعة لأشياء وقصص ومعارك وفشل وانتصار .. لأناس عظماء لديهم .. أو أعزاء علينا ..

فأنا لم أكن مثل عوليس أضع الشمع في أذن حتى لا أسمع .. فإنا سمعت اسهرت ووقعت ضحية لما أحب .. بل إنني وضعت الشمع على كل حواسي أول الأمر .. وبعد ذلك نزعته .. ولم أعد أخاف أن أحب .. ولا أخاف أن أكره .. ولا أترفع أن أنبر وأن أعجب .. لم يكن طبعاً .. لأى سبب .. أن أحرم نفسي متعة الحياة .. ومتعة التأثر .. فكانت ذهبت إلى كل مكان واستعدادى عظيم لأن أغنى .. فإنا زعمت رأسي إلى مكانه فوق كفى شيء آخر .. بشخص آخر .. رمز آخر ..

وكل شيء له معنى .. وكل معنى يستحق التفكير .. والخى له معصية
ضعيفة يعيش على «الملوق» - أى الطعام الفصحى الذى لا طعم له - فلا هو
حلو ولا هو ملح ولا هو حريف .. ولكن العدة السليمة هى التى تأكل أى
طعام وكل طعام .. ثم تختار بعد ذلك أحسن الأطعمة وأنعمها وأرعمها ..
وقد حاولت عبر طرق كثيرة متناحلة معقدة أن أحد ما يناسب الحقل
والقلب والمعنة

من بعيد جداً تأتى مياه الأمطار والأنهار

من أين يأتى المطر؟ كيف يسقط فجأة وبغزارة على مكان ما من الأرض؟
إنه سؤال جغرافى. ولكن الشاعر الألبانى ريلكه يقول فى ديوان
«الساعات» : إنه نبع من سماوات بعيدة .. ويتصاعد من أرض رائية ..
وهناك فوق ومن مكان فى غيبة السمو يتكاثف .. ونعى رياح وتدفعه إلى
مكان لا يعرفه .. وفجأة يسقط المطر
وسؤال آخر من أين نعى مياه الآبار ومن أين تنبع الأنهار اخوفية تحت
الأرض؟

والجواب: إن هذه المياه هى الأخرى قد نزلت بها الأمطار واحتفظت بها
الأرض .. وتسررت وانطلقت واحتبست ثم عادت تسربت .. ووجدت
مكاناً مناسباً فى الأرض فهبطت على شكل آبار .. أو انطلقت على شكل
نافورات - هكذا يقول الجغرافى العظيم همبولت ..

وأشياء كثيرة مثل ماء المطر تنبع من زمن بعيد فى تاريخ أى إنسان ..
وتتجمع وتبتدئ .. ونفث وتظن وتدفق إلى أعين فى الوقت المناسب .. فى
الطفولة أو فى الشباب أو فى الرخوة - إن كثيرين من الناس وينوا مؤمنين ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

وقيلون من الناس كبروا مؤمنين ، والمتأدرون من الناس أدركهم الإيمان قبل أن يدركهم الموت بقليل .. فكان إرادة غالبه شئت أن يموتوا مؤمنين .

ولو عدت إلى ورأى لرأيت بوارق كثيرة تؤكد أن شيئاً ماسوف يجري في نفسي .. أو تجري به نفسي أو تنفجر فيها ، أو تنفجر بها .. فأحترق وأضئ في وقت واحد - هد ما أدركه لأن . أو أحزن ذلك . ولم يكن ذلك واضحاً في يوم من الأيام .. فكل الليلة تنذر بالمطر .. تنذر بالبرق .. ولكن متى يضيء ؟ كيف يضيء ؟ لماذا يضيء ؟ لا أدعي الآن أنني عرفت ، ولا في ذلك الوقت أيضاً .

إحدى البدايات هذه الخيوط الطويلة التشابكة التي صنعت شبكية بصبري لا بد أن يكون أي أو أمي .. أو هما معاً .. أو أمي فقط

فأنا مرتبط بها .. أو مرتبط بأمي أكثر .. لأننا نشأنا في عزلة .. مجموعة من الأغنام الخائفة من الذئب .. وكل ما حولنا ذئب .. لماذا ؟ لا أعرف .. ولكن أصبحوا وأنام على الخوف من الناس ومن الزمن .. فكل الناس هم أنياب .. وكل لحظة لها عقربان .. وكلها قد أعدت نفسها على الهجوم علينا .. ولم أسأل نفسي في أي وقت ولماذا علينا وحدنا ؟ وماذا عندنا يفرى الناس بالاحتشاد والتنبه ضدنا ؟ لم أسأل نفسي ولا أحداً في أي وقت .. ولكن لا يكاد يمضي عام حتى نكون قد انتقلنا من بلد إلى بلد .. كأننا جزيرة عائمة وسط محيط هائج مائج .. المحيط يتهدد ونحن نتهدد .. المحيط يعلو ويهبط .. وحس ملاحقون معاً .. حائسون معاً .. حول أسا .. لا نعرف إلا هي .. ولا رأى إلا لها .. ولا حكمة إلا عقلها .. فهي التي تعرف كل شيء .. وهي التي تتبأ بكل شيء وكنا ونحن صغار - نسألها هكذا : وهي يضيء

خطاب من أي ؟ فتقول حبيبة : غداً

ويجيء الغد راخطب .

ونسألها هكذا : وهل يبعث أي بفلس ؟

فتقول : ثلاثة جنينيات

وتجيء رسالة وبها ثلاثة جنينيات .

وهل يشي فلان من مرضه ؟ نعم بعد أربعة أيام .. وهل يهاجنا

الذئب ! نعم غداً .. ويحيى الذئب في الغد

وكان الذئب يتنفر من دغدة إلى بيت .. فليبت في أحرف مديدة

أبو حمص على حافة حديقة .. وفي البيت دواجن وأغنام وذئكة يومية .

ومعظمها يضيء أحد أقاربنا وبأنه قد كل شهر

ولا أذكر أي . فقتل سبب من ذلك مع أمي .. فنحن جميعاً وإني جوارها

وفي أحضانها في مكان أمين نحن نحف وهي لا تحف أو هكذا كنتة مؤمن

وفي أحد الأيام صحونا من النوم على ثعبان قد تكوّم في الأرض .. لعله

كان يحتاج إلى دفء .. ونظرت إليه وأنا شديد الخوف .. ولم أنطق بكلمة .

فقد وجدت أمي قد أحاطت بي .. وأغرقت أنا في النوم .. ولعل سبب ذلك

الخوف . ولكن أمي أيقظتني تقول : هات المصحف . واقرأ .

ولم أستطع أن أنزل من السرير لأنني بالمصحف من مكان قريب من

الثعبان . ولكن لا أدري كيف اقتربت من الثعبان فلا هو تحرك .. ولأن

شعرت بشيء .. كأنني لم أتحرك .. وبسرعة أمسكت المصحف .. وقلت لي :

اقرأ سورة يس وإن أعدد وراءك ..

وقرأت .. وكانت تردد ورأى .. وضغطت أمي على يدي لأرى ..
ورأيت الثعبان كأنه عقدة تتحل .. أو كأن أصابع خفية ، أو كأن حروف
القرآن قد فكته عقلة عضلة .. وإذا بالثعبان يختفي تحت السرير .. وتزلت
أمي من السرير وأتت ببعض الأعشاب وأشعلت فيها النار .. وامتلأت الغرفة
بالدخان .. وعرفت فيما بعد أن هذا هو « الشيخ » الذي يقال عنه الشيخ في البيت
مليح !

وفي إحدى الليالي تغيب والدي عن الحضور .. ولم تكن هذه عادته .
مضت الساعات الكبيرة من الليل .. وجاءت الساعات الصغيرة الواحدة
والثانية والثالثة - ولم يغف لأمي دمع .. ولا لها .. ولا تتساءل عن شيء .
لا كلام - بل تركها هذه انقصرات الساخنة على الحذر . تلهب العين والوجه
معاً .. وفجأة طلبت مني أمي أن أتي بالقرآن .. وأن أتلو وهي تردد ورأى
وعندما فرغت من القراءة سمعنا دقاً على الباب وفي نفس واحد قلنا : مين ؟
لعمري غريب .. لعله ذئب .. لعله نص .. لعله واحد من الناس . وكان
ناس كذلك .

ولم يكن أحد فعلاً .. أو كان أحد وأدرك أننا لم نتم .. ثم اخنق .. مع
أنا لا نستطيع أن نحس شيئاً .. ما الذي نستطيع أن نأطاعه الصغار أن تفعل
شيئاً في هذه الساعة من الليل ؟

وعادت أمي تطلب مني أن أقرأ القرآن الكريم .. وقرأت .. ولم أكد أفرغ
حتى سمعنا دقاً على الباب .. ثم انفتح الباب .. إنه أبي .. وعرفت تفاصيل
الحادث .. كيف أنه اضطر إلى الشهادة في قضية اتهم فيها صاحب العمل

الذي كان أبي يعمل عنده .. ودخل صاحب العمل السجن .. وفصل أبي
من عمله .

وكان لا بد أن نسامر إلى بلد آخر .. وصافرتا وفي اسبارة كان أبي لا يفعل
شيئاً إلا تلاوة القرآن .. وأنا أردد وراءه .. في الظروف الحزينة فقط نقرأ
القرآن وننتظر المعجزة .. وكانت نجيء .

وعندما دخلت كذاب قرية ألباز مركز فارسيكور .. كان صاحب الكتاب
قريباً .. إنه أشقر أزرق العينين .. وعشرات من أفراد أسرة أمي كذلك ..
فحدثنا الكري فرنسية مغربية مسيحية .. وكنا نضج على أنها لا تعرف
تنطق العربية .. وكيف أنها أفضل منها .. ولم ألاحظ أنها كانت تجلس معاً في
الكتاب .. لم أفهم لأنني لم أسأل .. وكنت أسمع ولم أفهم أيضاً .. أمي دفنت
في مقابر أخرى غير التي دفنت فيها أفراد الأسرة .. وفي أحد الأيام صلب ابننا
سيدنا صاحب الكتاب .. أن نذهب ليلاً ونسرق أكتافاً أخرى .. وهذا
الكتاب نرجل ينافسه وأحسن منه حقاً وأكثر صبراً على متاعب التلاميذ
الصغار .. وذهبنا ومرت بعض المقاعد في الليل .. وعندما بها لتجد سيدنا في
المنظار .. ولما تبته بعض الناس إلى ذلك عابوه : كيف تعلم الأطفال
السفرة ؟ ما الذي سوف يفعلونه عندما يكبرون . فقال : يا أخى موسى عليه
السلام قتل واحداً مصرياً !

وفي اليوم التالي اعتنق احمراء واحداً من أبنائي شمة شعني - مصر
على رجل آخر .. وهنا الخروب قد مات فعلاً .. وذهبت إلى النعمة أقول
له : موسى قتل .

ويستأى العدة وهو قريب ما أيضا أنت .أنته . فقلت . سيدنا هو
الذى قال

واستدعوا سيدنا . وعدت أقول : أنت قلت : إن موسى هو الذى قتل .
وبعد ثلاث ساعات أعودنى إلى البيت . وتلفتنى أُمى بالضرب العنيف ..
وكانت تضربنى كثيراً .. وكانت تبتها بأنها كسرت على رأسى سيف النخيل ..
وأحياناً تقول خمسة وأحياناً تقول سبعة .. وكان يفيض أُمى وبضايقتها جداً
أنتى كنت أتلقى الضرب ولا أبكى .. وكانت تقول : أنت إيه ؟ الضرب
لا يوجعك . لا يؤلمك .. لماذا لا نبكى ؟

وبعد ذلك بعشرات السنين . عندما قرأت الفلسفة الوجودية وجدت
معنى ذلك . فليس أفسى من أن نظن للإنسان .. ولا نتكلم .. فهو يحتاج ..
ما الذى تقوله عينك ولا يفصح عنه لسلك .. هل أنت تلغه .. هل أنت
تخفقه . هل أنت تستهين به . وعرفت ذلك عندما تضرب السيدة فى البيت
خادمتها .. فلا تنطق .. فهنا يضاعف من ألمها . وتشعر السيدة أن الخادمة تضربها
بسياط من نظراتها .. وأن هذا هو أفسى انتقام .. ولذلك تجد السيدة نفسها مضطرة
إلى أن تدفع الخادمة إلى الكلام .. أى كلام .. وهنا تستريح السيدة وتقول :
هكذا .. انطق .. اتكلمى . قول . آه

وفى اليوم الثانى ذهبت إلى كتاب آخر .

وبعد ذلك بأيام أخذتني أُمى إلى بيت إبراهيم باشا عبد الحادى . أحد
قاربها وصلت منه أن يسبحنى . ولكن البيت لم يقل شيئاً . لأنه لم يعرف
غضبى .. فقالت أُمى : إنه لم يعد يقرأ القرآن .. إنه يضرب الأطفال كل

يوم .. وكل يوم أقع فى مشاكل .. وكثيراً ما أتوا به من فوق النخيل وأشجار
التوت .. وقد سقط مرتين .. وقد غرق منذ أيام فى النيل مع أنه لا يعرف
المساحة .

ولا أعرف من كل هذا الكلام ما الذى استراح إليه الناس .. فقد أدناى
منه .. ووضع يده على رأسى وهو يقول : ماشاء الله .. عنتك كم سنة ..
فقلت ثمانى سنوات

وعادت أُمى إلى البيت لتقول لى : أنا قتلت ألف مرة .. نلت كل أحد من
الناس .. لابد أن نعرف أننا مختلفون ..

ولم تدوخنى عبارة قالتها أُمى .. أو سمعتها فى حياتى مثل هذه العبارة ..
فنحن مختلفون لماذا ؟ هل لأننا غريباء فى كل أرض . هل لأننا مثل عائلة
أروينسون كروزوف فى جزيرة مهجورة أو كأنها مهجورة . هل لأن الناس كلهم
يملكون أرضاً . ولا نملك .. هل لأننا مثل الكرة .. مرة كرة قدم . ومرة كرة
يد . ومرة كرة طاولة .. وكل يوم يضربنا الجهول إلى أرض بعيدة . كأنه
مكتوب علينا ألا نستقر عند هدف .. عند شجرة . صحيح . نحن غير الناس
جميعاً . ولكن لماذا ؟ لم أعرف . إذن لأننا مختلفون عن الناس . ما الذى
نفعه ؟ يجب أن نفعل شيئاً آخر . ما هو الشيء الآخر ؟ هذه هى المشكلة .
أُمى تقول : إن أولادى مثل البسات . يضعون وجوههم فى الأرض إذا أحد تحدث
إلَيْهم . ويقولون على أنفسهم الأبواب إذا دارت جارة أو قريبة . أولادى أصواتهم
منخفضة لا يرفعون صوتاً ولا عيناً ولا يناد على أحد . هذه تربية . أولادى فى حالهم
من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت . أولادى ليس لهم أصدقاء . فأناس
أشرا جميعاً . ربنا قل ذلك فى القرآن !

العجرج .. وكنت سعيداً بفضل صديقة ألب معها . ولا أعرف الآن ما أنشئ
كنت أقوله له حتى غيى الظهر بسرعة . وبعى العصر بسرعة . ويدخل بيل
دون أن نشعر به . ولا ما الذى جعلنى أقبل لما ما أستطيع من السكر ومن
الأرز والصابون . وربما ضرتنى أمى بعد ذلك عندما سمعتى أقول له عندما
نكبر سنزوج . وحياة كتاب الله

وأقسمت على المصحف . واختفت هذه الطفلة الساحرة وعالمها المسحور
عالم العجرج .. وكنت أحسن دائماً أنى واحد منهم . أو يجب أن أكون !

وعندما تقدمت فى الدراماة الابتدائية أحسست بشيء من الحرية . وكنت
أذهب إلى أبو حمص على ظهر حمار . ونجمع قصص أرسين لوين . وكان
يعدنا لك صديقنا رمضان عطية ابن صاحب محل فول عطية البكاش . وهو
الآن صاحب محل . ويقال صاحب أكسيات . وكان يرافقتى صالحي عجوب .
وهو أبو المثل الشاب المعروف صالحي عجوب أيضاً . ونشفت بهذه القصص
البوليسية عن الطعام والشراب . وفى كل أسبوع أقرأ عشرأ من روايات الجيب
اننى كان يصدرها عمر عبد العزيز أمين .. إنه عالم عجيب غريب . ولكنه مثير
وممتع . وهذه الروايات جعلتني أتجه إلى هذا النوع من المنعة . ولم أعدل عنها
إلا فى سن متأخرة عندما وجدت فى المتصورة كتب الأستاذ محمد صبيح عن
الرسول وأنى بكر وعن القرآن وكانت هذه الكتب صغيرة . ورخيصة . وقد
أغلقت لافئة يرسها الأستاذ عبد السلام المشرف . واقتبت كل هذه الكتب .
وهى مختلفة تماماً عن روايات الجيب . وإن كانت متشابهة من بعيد . فهى
حقيقية تبحث عن حقيقة شيء حتى يتبدى إليه .

وأول خروج من هذه القراءات كان عندما عثرت على رواية حسين عفيف

ولكن أمى لم تشأ أن تقول إننى أخرج فقط عندما يكون هناك ميت .
ورجل يقرأ القرآن . أجلس فى مكان قريب من باب الصوان . فقد حدث
كثيراً أن جلست فى الداخل . وجاء واحد وطلب إلى أن أنهض ليجلس هو .
ولذلك أجلس بالقرب من الباب حتى إذا أنهضنى أحد . لم يشعر الحاضرون
بذلك .. أما الموالد والأفراح حيث الرقص والغناء فلا أذهب مطلقاً . ولعل
من أسباب ذلك أن الأطفال قد تشاجروا معى ومزقوا ملابسى وهنا مالا
يحدث فى المآتم ..

وفى سن مبكرة أصبح مؤكداً أننى نلميذ مجتهد . وأنى ترتبى يكون
الأول . وأن هنا يدعش الناس . ولكن أمى لا تعلق على ذلك بشيء .
ولا أظن أنها قالت لى مرة واحدة : مبروك أو أى شيء له مثل هذا المعنى .
وهى معذورة . فهى لا تقرأ ولا تكتب .. وهى مشغولة بأشياء أخرى :
بالطعام وتأميننا من الخوف . والبيت كله . وزيط أمتعتنا ووضع الكثير منها فى
حطب من البيت . تتطأ الحصاة بجىء من أنى يقول لنا : استعدوا نحن
ناهبون إلى بلد آخر .

ووجدت نفسى صديقاً للعجرج فى كل مكان . بل إننى كنت أبحث عنهم .
شعور غريزى هو الذى هلتنى إليهم . ربما لأنى مثلهم . ربما لأننى من أسرة
حائرة دائرة باثرة عثرة . وأننى مثل هؤلاء العجرج أقيم فى بيت من القش فى
مهب الريح والذئاب والخوف .. وأننى قطعة حجر متحركة . ولأننى متحرك
فلا عشب ينمو على حياتى

لا صداقة . لا زمالة . لا محبة . لا جيران . لا إخوان . لا أحد لا أحد
كأننا خارجون على القانون . كأننا على الشفة الحرام بين الحياة المدنية وحياة

واسمها «زيتا». وهي زوية رومانسية شاعرية وفي غاية الرقة والحلاوة إنها عالم آخر: أنعم وأرق كل شيء فيه عسر وليس وأسى وأمل.. أول مرة أعرف شيئاً اسمه الحب. ولم أكن أعرف هذه الكلمة. ولا معانيها. ولا قوتها. كأنني كنت مطلوب الغرائز. وإنما كانت كل غرائزي هي: الخوف من كل شيء حوى. ومن كل ما قبل وما عسى. ومن كل دخول وخروج. ومن المدرسة. ومن المدرسين. ومن الامتحان. وأن تتمزق ملابسى. وأن يتسحق جلدائى. وأن أسهر كثيراً. وفي ذلك انصباح. وأن أحسب إلى حياة العائفة. وأصعب ببروميتهم. وسعل مثل من الذى تفرق صدرها من العناء. وأدم. خوف في خوف.

وعرفت محلة الرسالة، التى يصدرها أحمد حسن الزيات. وعرفته هو بعد ذلك طبعاً وحيداً. وآخر خصص كتابه في حياته هو الذى بحث إلى به. وشكرته على حسن صده وتقديره. يرحمه الله. وفي الرسالة اهتديت إلى العقاد. وكان العقاد نوراً باهرًا وسلاسل ذهبية. وحسراً من الضل. وباعدة على كل الدنيا. وقدة صافية. وألمع عقل إليه.

وقلى بعد ذلك. ومنذ ذلك الوقت وهو لا يغيب عن عيني وفكرى بل إنى وأنا طاب في المتصورة التاتوية كت ألف حور عبق كوفية كما كان يفعل العقاد.

ومن الغريب أنى كنت أمتنى مثله. مع أنى ما أرى في حياته. ولكن قيل لي ذلك من الذين يعرفون العقاد. وكنت لأقرأ الرسالة التى ليس بها مقال للعقاد. فأنا أشتريها من أجله فقط. ولا أدعى أنى كنت أنهم العقاد. ولكنى كنت أهر إلى كم دعاية سخيفة. وفي حديث متية. ما أعمد من

الحراسة المسلحة. إنه شيء قبيح ولكن ما الذى تشبه هذه لفظة. لا أعرف. ولكن أغشى نفس فكره. ورأيت في ذلك نقد من المتكبر. أو قواعد للسب. أو سلم مساعد إلى لا أعرف أين. وكان هذا هو الذى يقضى أن أجد صديقاً. مرصوماً. أحد علامات واضحة. أن أحد مصابيح على الطريق. أن أعرف من أين وإلى أين. وبذلك أفكر.

ودخلت التوجيهية أدنى. وكان ترتيبى الأول. وترتيبى الأول في معاينة الفلسفة. وكان من الذين ترتيبهم الأول في الأدب. د. عبد الغنى محمود عميد كلية زراعة القاهرة.. وآخرون لا أعرف أين هم. من بينهم د. عبدالفتاح محسن الأستاذ في الهندسة الآن.

وكانت مثلنا ألعيا في ذلك الوقت هم الطلبة النابهين. وكلهم من الشعراء مثل: ماهر قنديل الكاتب اللامع في محلة «حواء» الآن. وعوض الدحة. لا أعرف أين. والشاعر البشبيشى وهو أيضاً لا أعرف مكانه وأصبحت ميونى أدبية فلسفية. وانغمت إلى الفلسفة. وبهرتني. وأطاحت بي بعيداً جداً عن أى شيء. أعطيتها نفسى. فأخذتني ولبت برأى وفلى. وأصبحت ورقة في مهب الريح. وكنت أطمئن نفسى بنفسى وأقول: ما من شجرة إلا هزتها الريح. ما من سفينة إلا هزها البحر. فلا اهتزاز حركة. والحركة حياة.

صحيح أن الاهتزاز ليس هو الانتقال. ولكن من الذى كان يشغل باله بالانتقال إلى مكان ما. أو إلى مذهب ما. أو رأى ما. لا أعرف تين بوصح. فأنا أجلس في حانة الفلسفة وأشرب كل ما يقدم لى. واهترطياً.. كل شيء جديد وكلها أسلحة في يدي أطلقها على كل المفنسات. وأفرح كما يفرح طفل بالحب. يصفقه على الحاس لها وهناك. ويفزع أناس ويسعد فرعهم.

وفي يوم عاد والدي إلى البيت ليجلني جلوساً على السرير مريضاً . ولكنه رأى شيئاً غريباً حقاً . فقد وجدني أضع رأسي في غطاء ماكينة الخياطة . فسألني : ماذا تصنع ؟

وكانت المفاجأة . لقد كنت أرتل القرآن وأسمع صداه في نفس الوقت . عندما وضعت رأسي في غطاء ماكينة الخياطة . وكان هذا الغطاء في ذلك الوقت نصف أسطوانى . وعرف من والدني أنني أفعل ذلك كثيراً . ودارت مناقشة أفرغني . هو يقول : ألم أقل لك إنه يجب أن يدخل الأزرار . وهي تقول : لا يمكن .. إن أقاربك مهتمون بأطباء وأساتذة في الجامعة .. ولا يمكن أن يكون أبى من جد الدين مثل أخيت .. يستحيل .. يستحيل .. أن يكون مقرراً أو مؤذناً .. وإلا

وإلا هذه معناها أن تجمع أمي ملابسها وأن تعلق بها وتعود إلى بيت أمهم . هناك طعم أوفر . ومكان أوسع

ركنت أشفق على والدي . إنه طيب .. مرقو .. مهدود . بعيد عنا . وفي الأيام القليلة التي يمكنها معا يسمع كل مشاكل الدنيا . وربما لذلك لا يبق معنا كثيراً . ولم أعرف أين الحقيقة في ذلك الوقت .. وعندما كبرت عذرتيها معا !

وعندما قرر والدي السفر بعيداً عنا قلت له : إنني رأيت النبي في المنام ! وكأنني ارتكبت جريمة . أو أنيت عملاً فظيهاً . بشعاً ! فقد تغير لون وجهه . وفرغت . وعندما اقترب مني أبى . قلت : لأ .. لم أره .. ولكن تباً لي ذلك !

ولكن أبى هذا روعى . وأجلسني إلى جواره وطلب مني أن أروي بالضغط

ما حدث . ورويت له . إنني رأيت شخصاً مضيق . وسط عدد كبير من الناس . وأنه جاء إلى هذا البيت . واندھشت كيف دخلوا إلى البيت ونهضت من يومي وقد وضعت يدي على عيني . فلم أستطع النظر إليه . وسألني أبى أشرح له بالتفصيل ما رأيت .. كيف كان وجهه .

قلت : لا أعرف . لم أره بوضوح . ولكن سمعت من يقول إنه هو ، سمعت صوتاً في داخلي . لا خارجاً عني ..

ووجدت أبى يقبلي ويكي . ثم وجدته يؤجل سفره . ويصحني إلى أحد العلماء . ويطلب مني أن أروي له ما حدث . وسألني الرجل العالم كيف رأيت . فقلت له : وسألني إن كنت قد قرأت شيئاً قبل النوم . قلت : لا . قال : لعكس بيت . قلت : كنت أذاكر .

وهنا والدي . لا أعرف على أي شيء . وتغيرت ملامح والدي . وأصبح أكثر رقة . وقال : يا ولدي لقد ندمت على أنني سمعت كلام والدتك . ولم أدخلك الأزرار الشريف ولكن الله سوف يكرمك ويترك . ويكرم بك الآخرين . الله يفتح عليك !

وفي الجامعة كان يدرس لنا الفلسفة الإسلامية الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرزاق . ولم أر شيخاً بهذه الرقة وهذا الوفاء . وهذا العلم . وكان يتغنى بالتاريخ الإسلامي . وكان يضل إلى الألفاء كثيراً وإنما أن شمل . وكان الشيخ مصطفى عبد الرزاق أيقاً في مسه وفي كلامه . وكان لا ينشئ على الأرض وإنما يطفو عليها .. كأنه ملاحجم ولا وزن مادي . كأنه روح - أو هكذا كان يبدو لنا .

وكان يدرس لي التصوف د . مصطفى حلمي . وكان رجلاً أعشى . وكان

مرحبا بكم لشكنته . ولا أنسى يوما عندما كان يشرح فلسفة يحيى الدين بن عري . فكان يقول : المطلوب هو أن نفس الكون من تحت لفوق ومن فوق لتحت كما يقول شكروكو .

ثم يقول : هذا شعر متطور . ونثر مشعور ، إن صح هذا «التعبير» يا أنيس يا بصور !

طراز آخر من الدراسة الدينية والفلسفية والصوفية ..

وقد نصحتني د. مصطفى حلمي أن أكتب رسالة عن «الحلاج» وعن الصوفية عموما . لأنه يلمس في كتابي نزعة صوفية شفاقة وضادة - على حد قوله .

ولم أكن ألاحظ ذلك . ولا أعرف كيف رأى ذلك في نفسي أو في المقالات القليلة التي أكتبها ..

وفي هذه الأثناء وقع في يدي كتاب للدكتور عبد الرحمن بدوي اسمه «من تاريخ الإلهاد في الإسلام» . هذا الكتاب اعترض طريقه ، وطمس عيني ، وتشعبت تحت قدمي السبل . وامتثلت الدنيا حول بنجوم تشد يدي إلى هنا .. بل إلى هناك .. بل .. لا هنا ولا هناك .. وإنما الضياع هذا هو الحل الوحيد لكل مشاكلنا . ألا نقول لا ولا نعم أن نتوقف عن احكام على شيء . لأنه لا شيء هنا أو هناك ؟

وامتدت يدي إلى اعترافات القديس أوغسطين الذي آمن بعد العشرين من عمره . كان له دين آخر . وكانت أمه تتبعه من إيطاليا إلى قرطاج في تونس . وكانت تصل من أجله . وكان القديس أوغسطين يقول : إن موبيك أمي هي

مصدر تعاصتي . أريد أن أرضيها . ولكني لا أعرف كيف . أريد أن أكون مسيحيا كاثوليكيا قبل أن تموت . ولكن قلبي لا يوافقني . وعقلي قد تمرد على قلبي منذ وقت طويل . فأنا لا أرى ما تراه . ولا أسمع ما تسمعه . ولا أدرى من تصلي له . ولا أرى تورا في السماء . ولا تورا في قلبي . اللهم اهبط إليك ، اهبط ليكي أسعد أمي ..

وعندما سافر القديس أوغسطين بأمه إلى روما ماتت في عرض البحر . وحزن عليها ، وحزن أكثر على أنه لم يكن قد وضع جنازة تاما . وآمن بعد ذلك .. ولكن بعد أن ماتت أمه بسنوات . وكان تلعب على أجنحة عظيم . فقد آمن وماتت أمه دون أن تعرف ذلك . ولكن لم يلبث أمه في دموعه . فالتوت جميعها معا . والتجبا فوق .. في السماء !

وهي تجربة عظيمة قام بها القديس أوغسطين .. فاعترافاته مشبوبة النار والشرار . وهي دافئة سخية مقدسة ..

واهتديت إلى كتاب «المنفذ من الضلال» للإمام الغزالي . وهزني هذا الكتاب . لأنه كلمني بعبارة مودرن . إني أقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسي ديكارت في كتابه المشهور «مقال في المبحث» . فهو يبدأ بانثك ثم ينتهي إلى اليقين . ولكن الغزالي أبسط وأروع وأعظم . ولكن ديكارت أكثر تعمقا في علم النفس والمنطق . والغزالي ما يزال أروع . تجرد من كل شيء ليؤمن بكل شيء . نزل إلى كل بحر . وضاف كل محيط ليرسوا على بر الأمان بالعلم والإيمان .

هنا في الغزالي . وثبت الأرض تحت قدمي . وثبت اندنيا كلها أمامي . هنا السماء وهنا الأرض . وهنا العقل وهنا النقل . وهنا الكتاب وهنا الخديث

وهذا الاحتاد . ولكن أير الوقت " نعم أين الوقت لتأمل في كل شيء . ونحن ما نزال طلبة نغرق في الكتب ولا نرفع رءوسنا إلا بعد الامتحان . حتى إذا انتهى الامتحان . كانت رقابتنا قد انكسرت من القراءة . وظهرنا من الجلوس وعيوب من الضوء الضعيف والحروف الصغيرة . وكان عيباً أن يستريح وأن يواصل القراءة وأن نبحث عن لقمة العيش . وفي البحث عن لقمة العيش كان من الصعب أن نعيش ، وإذا عشنا من الصعب أن نواصل القراءة . وإذا قرأنا فحاجتنا إلى القراءة شديدة . وما أكثر ما يبصر من كتب . وما أصعب أن نمتنع ما ابتلغناه . وما أشق أن نهضم ما مضغناه . وما أفسد أن تمتص أعمارنا المرتفعة كل ما هضمناه ..

وأذكر ما قاله جان جاك روسو في الصفحات الأولى من « الاعترافات » يقول : ماتت أمي . وخزن أبي . وكان يذكرني دائماً بها . وكان يقول لي أنت صورتها الحية . ومع ذلك مات أبي في أحضان زوجة أخرى .. وفي إحدى المرات سألتني : أنت لم تعد تذكرني بأهلك . فقلت : إذن لبيك معا ..

ويقول روسو : « هذان هما الاثنان اللذان ألفا كتاب حياتي . والآن أنت تعرف ماذا جئت شديد الحساسية وشديد الرقة . وكان أبي سعيداً برفقي وعطفي . ولم يعرف أنني أشد تعاسة منه بذلك ! » .

فالإنسان كما صنعت أمه .. أو ذكرى أمه . فستقبل أي طفل هو ماضي أمه !

وآدم قد أسى زوجته « حواء » ومعناه حياة ، لأنها أم الحياة كلها ! وتذكرت حواراً لأوسكار وايلد في مسرحية « امرأة لامية لها » - كل النساء مثل أمهاتهن . وهذه مأساتهن .

- لكن الرجال لا يفعلون ذلك . وهذه مأساتهم !

ولأعرف بالضبط الآن لماذا كنت أعامل على أم الفيلسوف الأناق شوبنهاور فهذا الفيلسوف متشائم . ولكن تشؤمه في غاية الروعة والجمال .

ويقال إنه حاول أن يدخل إلى الصالون الأدبي الذي أقامته أمه في بيتها . لا شيء إلا لكي يعرض إنتاجه الفني على الشاعر العظيم جيته . ونفى أمه عن السلم . وغضبت من أنه دخل بلا إذن .. وثارت عليه . وصرخ فيها : مهيا فقلت .. ومهما قابلت . فلن يعرفك أحد إلا بأنك أم شوبنهاور !

وقد حدث ذلك . ولما قرأت عن شوبنهاور أكثر . عذرت أمه . وأنا أعذر كل الأمهات . لأنني أعذر أمي . وأرى أنها مضطرة إلى القسوة على أبنائها فالحياة أقسى عليها من قسوتها على أولادها . وهي لا تفعل ذلك إلا مضطرة . ولا أقول كل الأمهات ، ولكن بعض الأمهات !

ويقال إنه حاول أن يدخل إلى الصالون الأدبي الذي أقامته أمه في بيتها . لا شيء إلا لكي يعرض إنتاجه الفني على الشاعر العظيم جيته . ونفى أمه عن السلم . وغضبت من أنه دخل بلا إذن .. وثارت عليه . وصرخ فيها : مهيا فقلت .. ومهما قابلت . فلن يعرفك أحد إلا بأنك أم شوبنهاور !

وقد حدث ذلك . ولما قرأت عن شوبنهاور أكثر . عذرت أمه . وأنا أعذر كل الأمهات . لأنني أعذر أمي . وأرى أنها مضطرة إلى القسوة على أبنائها . فالحياة أقسى عليها من قسوتها على أولادها . وهي لا تفعل ذلك إلا مضطرة . ولا أقول كل الأمهات ، ولكن بعض الأمهات !

ومن غير متعصب كتب مقالاً في مجلة « كلية الآداب » عن الأم . لا مناسبة

أبداً إلا في داخل نفسي . والمقال أمامي الآن . وأحد فيه هذه الآيات

« وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » . « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » . « ولا تضار الأمة بولعها » . « ولا مولود له بولده » . « تذكر معني علبك وعلى والدتك » . « وبرا جانتك ولم يحلى جباراً شقياً » . « انقوا ربكم واحسوا يوم لا يغزي والد عن ولده » . « ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » . « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . « يسألونك ماذا ينطقون قل ما أنفقتم من خير فقلوا للدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما أنفقوا من خير فإن الله به عليم » . « أن أشكرى ووالديك إلى الصبر » . « وبرا بوالديه ولم يكن جباراً غنياً » . « ربنا اغفر لي ولوالدي والمؤمنين يوم يقوم الحساب » . « لن نغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً » .

وآيات أخرى كثيرة . ولا بد أن يكون سبب ذلك إحساسي بأني سوف أخرج في الجامعة . وسوف يكون عني أن أؤدي ما يجب . أن أفعل لوالدي ما فعلاه من أحلى إليهم فعلاً ما يستطيعون . وما يستطيعون قبل حد . وكبها فعلاً وأعطي كل ما عندهم من المال والصحة والشفاء والهوان . وكأنني كنت أعاهد نفسي على أن أفعل من أجلها شيئاً .

وفي يوم غريب . مات أبي . كان مسجى على سرير في عيادة في بيت تنكها أختي الكبرى . واستدعاني قبل وفاته بساعات . وارتعجت يوم استدعاني فقد حدث ذلك أكثر من مرة عندما استدعاني بعض أقاربي ليقول آخر شيء . . . وذهبت وأنا لا أستطيع أن أراه مريضاً . ولا أقوى على حزنه المكثوم وأنه اليقين . ومن الذي يستطيع . وقربت منه وقبلت يده . وسحب المصحف من تحت رأسه ليقول : تعلقني أن تدرس فاني . فلا شيء يرفع أحداً إلا العلم . قلت : أعاهدك

وأدجع رأسه إلى الوراء ليسألني وكل أمل الدنيا وسعادتها في عينيه . قل وكأنه لا يسألني : نجت يا ولدي . قلت : الحمد لله

- وكان ترتيبك الأول .

- نعم .

- وماذا تصنع بعد ذلك . .

- قابت د . شوق ضيف . وسوف يبعث بي إلى د . عبد الوهاب عزام .

- لنفعل ماذا ؟

- لأعمل .

- وبعد ذلك

- أتفق على صحتك وعلى صحة أمي

- الحمد لله .

وتراجع برأسه إلى العالم الآخر . ولم أجد في عيني دموعاً . لقد أخذها معه . إلى حيث لا أعرف . أين دموعي ؟ أين جبي له ؟ أين خوفي عليه . . وما معنى هذا العهد . ولماذا يموت يوم نجت . وما الذي أدرسه هل هو القرآن فقط . أم أنه جعلني أقسم على القرآن أن أوصل العلم . الغنى ما أوسع . . وقد أخذت من كل العلوم : الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الحماة وتاريخ الأدب .

ولم أمش في جنازته . لقد مات في قلبي . في أعماقي . فكل خطوة أخطوها هي جنازته فأن أضحك معه وأراه في يقظتي وفي يومي . وفي يقظتي أكثر . وهذا الذي أراه هو الذي دفعني إلى الإيمان بعالم الروح . فالذي أراه بهذا الوضوح لا يمكن أن يكون وهماً . وهذه قصة أخرى طويلة

وقصص أخرى طويلة .. فالبلديات لكل شيء بعيدة . ومعقدة . وترجع
إلى الطفولة والشباب والرجولة . وإلى تجارب الحياة ومعاناة الفكر ، والمعاناة في
الاهتمام إلى ميناء على شاطئ بحور الإيمان بالأديان ..

وفكرت - ولا أعرف لماذا بعد وفات أبي - أن أؤلف كتابا عن الرسول عليه
السلام . ووجدت أنني لا أستطيع . فانا لا أعرف شيئا له قيمة من الدين
وكتب الدين التي قرأتها قليلة . فانا أولا تفدني عرية وثانيا عرية وثالثا دينية
عامة ورابعا إسلامية .. إذن فانا لست مؤهلا لشيء من هذا . ولكن استطاع
أساتذة كبار أن يفعلوا ذلك . استطاع العقاد وطه حسين والحكيم وقلهم محمد
حسين هيكل .

وكنت قد عرفت الشاعر الممزق كامل الشناوى . وفي يوم سألنا :
من الذى يمكن أن يدخل الجنة من كتب سيرة الرسول : الدكتور هيكل أو طه
حسين أو العقاد أو الحكيم !

وانفتح باب المناقشة . واختلفنا فيما بين الذى يستحق الجنة ولماذا .
فقال كامل الشناوى : ولا واحد من هؤلاء فقد كسبوا من كتبهم عن
الرسول ألوف الجنيات . ولذلك لا يستحقون أجراً من الله على شيء .. لقد
صفوا حسابهم مع الله ورسوله !

وعلى الرغم من أنها عبارة صاخرة ، لكنها استقرت في نفسى . وأوقفت كل
تفكيرى في إصدار كتاب عن الرسول . ولابد أن تكون رغبتى في إصدار هذا
الكتاب هو إحياء ذكرى «محمد» الذى هو والذى أيضا . أو هو نوع من
الامتنان له .. ولكن ما قيمة الامتنان لمن لا يشعر به . مات . راح . ولم يشأ الله
أن أصبح له شيئا . أن أكافئه على مد يد من أجل ومن أجل إخوتى . ولم أنسه

يوما . وإنما كلما أكلت شيئا . أو صافرت إلى مكان . أولبست . أو كسبت أقول
لنفسى : لو كان والذى حيا ..

وأعتقد أنى أعطيت أمى كل ما تمنت ، وكل ما تمني والذى أيضا .
وأسمعنى ذلك . وأشقانى أيضا . فانا أتمنى الكثير لها . ولكن لا أقدر إلا على
القليل ولم أفصح في أن أقمعها بعلاج . وكانت تضى عنى مرضها حتى جاء الموت
فأنقذنا نحن الإثنين من مرضها ومن حزننا عليها ..

وكنت أخاف على أمى أن تذهب إلى الأرض المقنمة . فالرحمة شاقة .
وهي مريضة وربما ماتت هناك . وكنت أقول لها : إن البحر مياهه جفت ..
وأقول إن ألوف الحجاج قد ماتوا من ضربة الشمس .

وكانت تقول لى : ولكن أحدا لا يقول شيئا من ذلك . فأقول لها : إننا
نعرف ذلك في الصحف . ولكن الدولة لا تسمح بنشر هذه الأنباء حتى
لا يترعب الناس !

وكانت تسكت مصدقة . أو تبدو كذلك . وقبل وفاتها بسنوات وجدت لها
صديقة وقررت الاثنان أن تسافرا لأداء فريضة الحج . ولم أجد حلا لهذا
الموقف . وخشيت عليها من مشقة الطريق . وبناء الله أن تموت هذه الصديقة
وكان حزن أمى كبيرا . إنها كانت تسخى أن تموت هناك .. ولكن هذه مشيئة
الله ..

ووعدها إن هى شفيت أن أساعدنها على حج بيت الله . وأقسمت على
ذلك ..

واختارها الله إلى جواره وفي قلبها نية الحج إلى بيته . وفى قلبى أمل أن أحقق
لها ذلك ..

وعرفت الطريق إلى قبرها . وفي يدي كتاب الله . أقرأ وأقرأ . وأهدى ما قرأت إلى روحها . والتي أعلم أنها ليست هناك في قبرها . فالأرواح ليس لها مكان . . . ولكن لم أفكر في ذلك . وكل يوم في يدي هذا الكتاب . أقرأ وتجف دموعي . وهي التي استعصت على عيني يوم مات أبي . فكأنني أبكيها في وقت واحد . .

وأحسست بالموت . وأحسست بأنني وحدي في هذه الدنيا . الكل مات . لم يعد أحد . لم أستطع أن يكون لي أحد . وليست حياتي كلها إلا محاولة مستمرة ألا أكون وحدي . وألا أكون بمفردي . فإذا قرأت فلأنتني أريد أن أسمع صوت إنسان آخر . . ولما اشتغلت بالكتابة وجدت أنني أقول للناس ولا أسمع ما يقولون . ولما اشتغلت بتدريس الفلسفة في الجامعة ، فلكني أرى وأسمع ما يقول الناس . . فإن كنت أفكر بصوت عال . وأسمع منهم ما يعجبهم ومالا يعجبهم . وذلك لأكون وحدي . وإذا أغرقت نفسي في الناس فلكني لا أجدني وحدي . . ولكني ظلت وحدي . وكما وجدت نفسي بكيت على حالي . وأدركت أن هذه أيضا نهايتي . كما بدأت خائفا ساموتا خائفا . لنجد وبدت لكي أموت كما ولدت . في الوحدة . والخوف لا شيء لي . لا أملك شيئا . ضاع كل ما كان لي . راح الأب والأم . . راح الوريث والشریان . راح القلب والعقل . راحت البداية وسوف تأتي النهاية بسرعة . . وفي مكبي أقفل الباب وأبكي . وإذا سمعت طرقا على الباب وضعت القفلة في عيني . . حتى أصبحت أتحجل من نفسي . . وأتحجل من عجز الناس عن التصديق . فهم لا يعرفون ما الذي أبكيه ولا ما الذي أبكي عليه . . إنني أبكي على نفسي . . بعضي يبكي على بعضي . . إنني أئذب ميتا في داخلي . . وأحمله . . ويحتملي . . ولا أعرف أين الكفن وأين المشيعون . . وأين المقاد وأين التقيد . .

وضاق الناس بحالتي . وأخفيتها عن العيون . وضاق الناس بما أكتب عن أمي .
ومال الأساء يس صغيرا
وقالت الأمهات : يا ليت أبنائنا كانوا مثلك أو واحدا على عشرة منك .
حتى عني الموت لا أدخل من الحسد .

- ولكن ما فائدة ما أقول ؟
- لا شيء !
- من الذي يسمعي ؟
- لا أحد !
- ما نهاية ما أقول وما أقرأ ؟ ومن الذي يستريح ؟ أنا أو هي أو هو ؟
- إنني من المؤكد أسريح
- ولكن إلى ماذا ؟
- إنني أقرأ شيئا يريحني وأؤمن - أو أصبحت أؤمن - بأنه يريح روحها
- من قال ذلك ؟

- لا أعرف . ولكن هذا هو شعوري . إنني أراها . أسمعها . أحلم بها . وأحلامي صادقة . فما أراء في نومي يتحقق بشكل ما . هذه حقيقة . وهي التي دفعتني وأثقت بي في عالم الروح والإيمان بها وأن هناك قوى أخرى . وأن هناك قوة القوى . عاقلة حكيمة . ونحن أمامها لسا إلا تملأ يعيش على نعمة اسمها الأرض في مجهول شامع واسع . لا نعرف نه حتى الآن طولا ولا عرضا . بل إن العالم الكبير إيشتين اليهودي يقول : إن كل ما يراه بدل على أن الكون ينسج . ويتساءل : ولكن ما هي سعة الكون . لا أحد يعرف . . ولكن كل شيء

بدر على أنه يتجه بعيداً عنا بملايين الملايين من السنين الضوئية !

ويوم أرسل أحد الأمريكان بريقة يسأله فيها : هل تؤمن بالله

فأجاب : ليس أمام أى أحد إلا ذلك . وإلا فينظر إلى السماء وليسمع موسيقاها الرياضية . وليل بعد ذلك من هو هذا الموسيقار المهندس العظيم الذى وراء كل شيء وكل نفس وكل عقل ؟ !

وانتهت إلى دراسة مكان الكواكب الأخرى . لابد أن يكون هناك أناس أكثر عقلاً أو أقل تطوراً . تماماً كما فى هذه الأرض . بدائيون ورواد فضاء . وسحرة وعلماء صواريخ ..

وانتهت بعد ذلك إلى دراسة ظواهر الروح والانشغال بها .. والإيمان بها . والإيمان باجتهادات العلماء الملحددين ، يثبت أن الروح موجودة وأنها تظهر بأشكال مختلفة للناس .. ويأتى وأنت وأنا جميعاً لاشيء . وإعنا مرحلة عابرة فى حياة طويلة للإنسان لا يعرف متى تنتهى ولا ما هى الحكمة منها ؟ فنحن لا نستطيع أن نعرف ذلك . إلا إذا استطاع النمل أو النحل فى بيتك أن يعرف معنى ما تنشره الصحف أو تقوله الاذاعة أو تقوله أنت عن النحل .. لا هى تعرف . ولا أنت تعرف . ولكن الذى يربح العقل هو أن ينتهى إلى شيء . ولن ينتهى إلى كل شيء فلا علم عندك ولا عمر أيضاً

وإن لم تجد راحتك بنفسك . فلن يبيها لك أحد .

وانعبارة الهندية تقول : أيا كان اتجاهك . أين كان موقفك . وموقعك .. وقبلتك . فإن الله هو الذى يهديك ويستجيب لك !

آمنت بالله . !

فمن أين جاء المطر . ومن أين جاء البرق . ومن أين جاءت مياه الآبار والأشجار ؟ . جاءت من مكان بعيد . ولحظة فى الزمان بعيدة .. من أيام طفولتك .. ومن أناس سبقوك إلى الحياة . والخوف منها والحرس عيها . ومن أناس علموك كيف تستضيء وتضيء وتضاء لتتهدى وتهدى !

صورة رسمتها وعشت عليها قد غيرتها !!

ما الذى جرى لى فى العشرين عاما الماضية ؟ كثير جدا جرى لى وجرى لى .
ولكن أين انتهت ؟ إلى كل اتجاه .. فقد كنت مثل العنكبوت له عشرون عينا .
ومشيت وراء عيونى . يميناً وشمالاً وانتهت إلى أعلى حافى الرأس . ونظرت إلى
أسفل على الرأس .

وأحسنت كأننى أبني بيوتاً مبنية فوق الأرض أو تحت الأرض . إنها حتمى
من مخاوفى . فالإنسان صانع مخاوفه . وكل إنسان هو شيطان نفسه .. ولكن فى
نفس القوت حرمتنى الماء والهواء والنفس

كأننى مثل رواد الفضاء السوفيت الذين أقاموا فى خندق تحت الأرض يعبرون
كيف تكون حينئذ نحت سطح القمر . فنادوا فعلاً ؟ إنهم حولوا البول إلى ماء
يشربونه . وحولوا البراز إلى لحم يأكلونه - متبى العظمة العلمية والعبرية
التكنولوجية . ولكن ما الذى شربوه وكيف كان طعمه ، وما الذى أكلوه وكيف
استمتعوه ؟!

كأننى خرجت من قفم ودخلت فى قفم أكبر . وخرجت لأدخل فى قفم
أطول وأعرض .. وكل شىء حولى من الزجاج الشفاف . لكنى أرى أوضح وأنا
آمن .. ولكنى عندما اقتربت من جدران القفم تحول الزجاج إلى شىء معتم لأننى
أنتفس بالقرب منه .. وبالقرب من كل جدار .. فانا الذى صنعت الزجاج . وأنا

الذى حولته إلى حجر معتم . فانا الذى أضمت أمام عيني كل طريق للمعرفة !

بل أكثر من ذلك أننى نظرت إلى كل شىء حولى .. ولكن لم أعرف الحجم
الحقيق للأشياء والناس .. وانوز الحقيق لكل قيمة . لماذا ؟ لأننى كنت أستخدم
نظارات مختلفة الألوان والروايا .. فبعضها يجعل الدنيا واضحة وصغيرة .
مثل الميكروسكوب يجعل الصغير جداً كبيراً جداً . ولكن ماهو الحجم الحقيق
للدنيا ؟ ما قيمتها ؟ وما ضرورى .. وما أهمية أن يكون لى رأى ؟ وأن يكون هناك أى
رأى .. ثم ما أهمية أن يبحث الإنسان عن المعنى وراء كل شىء . وإذا عرف فما قيمة
المعرفة .. وأيهما أفضل هذا الخائر الباطن الماثراً أو هذا التاجر الداعر الذى يتحمل فى
يديه كل شىء إلى سلعة فائز ولها قيمة .. وهل يستطيع الباحث عن المعنى أن يكون
تجاراً . وهل يستطيع الباحث عن الحق أن يكون مفكراً أو فيلسوفاً !

سئل الحكماء اليوناني ديجين : أيهما أفضل عندك الرجل الحكيم أو الرجل
الغنى ؟

فقال : بل الرجل الحكيم .
فقال له : وكيف تفسر وقوف الحكماء بأبواب الأغنياء . وعدم ونوف
الأغنياء ببيوت الحكماء ؟

فقال ديجين : لأن الحكماء يعرفون قيمة الثراء والأغنياء لا يعرفون قيمة
الحكمة !

وكيف رأى رجل حكيم مثل عاش غديداً وراء مع الكلاب . وهو سعيد
بذلك ؟

وبار : أى حوى . وكأنه دبت الريح . يتجه إلى كل رحبة . وليس له

أفق . ولا وجهة ولا قبله . والذي ليس له هدف . فكل الشوارع عنده سواء ..
وكانت كل الفلسفات والديانات عندي سواء .. فليس لي هدف . وليس عندي
أى أمل فى شىء ! وصلت حيرتى وزادت متاعبي . وتفتت على كل حمدة .
وتوجعت من كل سرير .. وضقت بكل من يقرب منى .. فقد أحسنت أن الناس
كلهم مثل القفص شاككون وأنا عريان النفس . مجرد الفكر . ممزق القلب .

وكنت أتصور أننى استرحت إلى ما تهدبت إليه . وأننى أدمت التفكير .
ولأننى أدمت لم أعد أميز بين فكرة وفكرة .. ففقدت لذة الأشياء وتعلمت
فوارق اللون .

وفجأة توقفت عن الأدب . لا أعرف كيف .. ربما لأنى تعب . وربما لأنى
انتقلت إلى أدبان أخرى . وتوجعت أكثر .. تماما كالذى يعتاد على الكيف أو
اغترت ثم يوقفها . كل شىء فيه ينأى . فكل شىء فيه قد اعتاد على أن يتوكل على
شىء تحت رجله وغت رأسه ووزاء ظهره وأمام عينيه .. فالتعبان تستدان إلى
منظار مريح . وأنا أتعلم على عصا . ورجلاي تعتمدان على بساط ينسحب من
تحتى . فأنقل دون حركة . لأن البساط السحري هو الذى يحملنى .. وفجأة
سقط المنظار والعصا وانسحبت الغدات وهرب البساط .. وكادت حوامى تهرب
منى ..

تراعت أمامى صورة قديمة وجديدة من الماضى البعيد والحاضر الأليم والمستقبل
الخيف . والإنسان لا يستطيع أن يمتنى فى حط مستقيم . ولا أن يهكر فى دروب
مستقيمة .. فالذاكرة تروح وتجيء . مثل موج البحر ومثل هبات النسيم ..
وأبت كفى جبلت فى بلاد الأقره . رطون . حيوم . ولم أعرف كيف أغلض
منها .. ورأيت نفسى مثل بروميثيوس تأكل الصقور قلبى . وأنا مخدر . فأرى

نفسى مأكولا متنبها وأخاف مما أرى . وأحمد الله أننى لا أحس بشىء .. وأخاف
من هذه الفكرة .. فلا أرفع بها صوتى فيجردنى الله من نعمة بلادة الحس أو
انعدام الحس .. فأصرخ مع كل ضربة منقار ومع كل قطرة دم وقطرة خم ..
وتصورت نفسى ذلك الإنسان الذى خطفه النسر فى قصص ألف ليلة وليلة .
الرتفع به إلى أقصى ديجات العذاب .. وأعط به فوق قمة جبل .. صحيح أنه
ارتفع به . ولكن خوفه من السقوط كان أعمق .. فقد سقط على قمة .. منتهى
السمو والألم !

فما الذى أقتنه لنفسى . ما الذى نسجته لنفسى حول نفسى ؟ فى العشرين
عاما الماضية أحسنت أنى مثل « دودة القز » نسجت لنفسى بيتا ناعما وقيفا
خائفا ! كفنا ونعشنا فى غاية الأناقة . ومث فيه .. أو كائناتى مث فيه !

ولا نهاية للصورة التى رسمتها بنفسى أو رسمتها لغيرى . ومن لمزكدة حيرتى
ليس هذا قرار . وليس صرب الأمانة وذكر فصوص التاريخ وأحراوت ولا دليلا
على أن كل شىء حاصر فى ذهنى . وإلا أننى عانت عن كل شىء . فإما سحين
نفسى . وأنا عبد لأفكارى .. وأن الحرحقيقة هو الذى يقيد أفكاره . ويطلق
خياله .. أو هو الذى يأمر حواسه . كأنها حاشية الملك . فإذا هى تفعل ما يشاء .
ولكننى أحسنت دائما أننى أقلية مضطهدة . وأن الأغلبية من الخواس والأفكار .
والخواف والشكوك هى التى أعدتني إلى الأرض . وحوثتني إلى الأرض تنومها
كل الأقدام .

وعلى سبيل المثال تذكرت دائما قصة « أوديب » .. فقد قالت العرافة لأبيه
الملك : سوف يقتلك أحد أولادك ..

وابتعد الملك عن زوجته حتى لا يكون له أبناء . وهو قرار يذوب مع الكأس

أو النشوة . وحملت زوجته وأنجب ولدا . وقرع الأب وطب من زوجته أن ترميه على الجبل حتى الموت . وأخذته الحادة وأسفقت عليه . وعلقته من قلبه حتى تورمتا . ولذلك سمى أوديب أى ذوالقلعين المنفوختين . وجاء رجل وأخذه ونقله إلى بيت . إلى سيدة ليس لها أولاد . وقى يوم قال له أحد الأطفال حسدا أو حقنا عليه . إنه ابن غير شرعى . وغضب أوديب . وذهب إلى العرافة .

فقلت : أنت كذلك . ولا تذهب إلى بيت أبيك وإلا قتله وتزوجت أمك ! وذهب أوديب الشاب ولقى بعض الجنود فقاتلهم . حتى قتلهم . وكان من بينهم أبوه . وولى الملك رجل آخر تزوج أم أوديب . وظهر وحش في الطريق يقتل كل إنسان لا يعيب على سؤال : وكان السؤال من هو حيوان الذى يمشى على أربع في الصباح وعلى اثنين في الظهر وعلى ثلاث عند الغروب

وعرف أوديب حل هذا المعض فقال له . إنه الإنسان . يخبو على أربع وهو طفل . ويمشى على رجلين وهو شاب ويعتمد على عصا وهو شيخ .

فانتحر الوحش لأن حقيقته قد انكشفت . (وكان الفيلسوف الألماني شوبنهور يلبس خاتما عليه صورة هذا الوحش وقد ألقى بنفسه في الهاوية . لأن شوبنهور قد عرف الحقيقة) . وكأما الملك على ذلك بأن أجلسه على العرش وتزوج أوديب أمه . وأنجب منها ولدين وبنتين .

وانتشر صاعون . وقالت العرافة لن يذهب هذا الطاعون إلا إذا خرج الرجل الذى قتل الملك . واستطاع أوديب أن يعرف من هو القاتل . إنه هو نفسه . قتل أباه وتزوج أمه . وحزن لهذه المفاجأة . وفقا عينيه يلبسه . وصحبته أخته ! وانتحر .. ويقال إن أمه أيضا انتحرت عندما عرفت الحقيقة !

فما المعنى ؟

المعنى أن أسئلة صعبة وجهت إلى الناس . وأن واحدا استطاع أن يجيب عنها . فما الذى أماد من هذه البراعة وهذا الذكاء : خراب الدنيا لكنها ومأساة هو في النهاية !

والمثل الشعبي المصرى يقول : آفنى معرفتى ، وراحنى ما اعرفشى .. فالعرة آفة . واجهل راحة . لقد عرفت الكثير فما أراحنى !

وأحسنت كائننى موسى عليه السلام ذلك الطفل الصغير أنقته أمه في النيل خوفا من فرعون . وذهبت أخته تربيته من بعيد . فلما التقطته امرأة فرعون استراحت الأم إلى أنه هناك . ولكن الطفل لم يرضع أى صدر . رفض الصدور كلها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم . « حرمانا عليه المراضع من قبل . فقلت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم . وهم له ناصحون » .

وجاءت أمه ترضعه ..

ولكنى لست وحيدا في النيل . لأم ولا أخت .. ولا وعد بمرضعة جديدة . فقد قلت كل المراضع . وذهبت كل لبن . وارتبعت على كل صدر . وفقدت لذة حنان الأم . أو المذهب الأم . أو الدين الأم .. فقد وجدت كل شيء . ولكنى لم أذوق شيئا . الكل موحود . وليس موجودا .

وصور أخرى كثيرة تعذب بها رأسى في كل اتجاه .. وكل يوم وكل ليلة . وكل كتاب .

وفكرت في الخلاص من متاعى وعذابى بالموت . وقررت وأنا في مدينة هافانا بكوبا أن ألقى بنفسى من فندق « كوبا الحرة » اكل شىء جميل . ولأنه جميل ولأننى لا أتناوق الألوان والأصوات والأفكار .. فكأننى ولدت أعمى وأخرس وأصم : لا أعرف أن أقول شيئا عن كل ما حوولى .. وهذه مناسبة لأن يكون موتى

قعة سوداء أو دامية في هذا الجرح وهذه الحياة . وفي يوم صلت يوسف نسبى
وقلت له عدى شيء هم أريد أن أقوله لك . ويوسف السعوى على عادته مرح
وقدر على أن يقول كل شيء إلى استمسة أو بكته . وأمام هذه المنهجة لم أحد ما
أقوله واخترعت قصة لا أساس لها .. وفكرت بعد ذلك : هل هذه فكرة
حقيقية ؟ أو أنها فكرة طائشة ؟

هل انتقلت إلى نفسى عدوى لأدب همجوى لى انتحرو لى نه يت
هافنا ؟ وما الذى يقال بعد ذلك تفسيراً لما حدث ؟ من أى مذهب سياسى هو ؟
وما الذى ضايقه ؟ هل حاول أن يجعل موته عالمياً ، فهنا تلتقى وفود القارات
الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ؟ ولكن من يعرف من هؤلاء ؟ ولا
واحد من الألف مليون من الصفر والسود والبيض ؟ لا معنى !

ولكن مادمت أسأل . عما سوف يقوله الناس : فأتا إذن لا أزال أهتم بالناس
وما يقوله الناس . إذن ليست هذه انية صادقة وليس المعنى واضحاً زائى ..
وفي إحدى الليالى تحدثت إلى د . رفعت المحجوب ، وكان شريكى في
غرفتى ، وكان زميلى في المنصورة الثانوية ، وقرنا بجائزة الدولة في عام واحد : ما
رأيت في الانتحار ؟

فأجاب بمنتهى الهدوء وكأنه يتحدث عن بذنية رياضية وقال : جنون !

— ولماذا !

— هرب من الحياة .

— ولماذا لا يهرب الناس من الحياة ما دامت لا تريحهم ؟

— يخافون . يكافحون . يقفون على حقيقة ثابتة .. أكثر هؤلاء المتحررين

جهة .

— لا أظن أنني جاهل ؟

— وما دخلك أنت ؟

— صحيح ما دخل أنا ؟

وأكملت حديثى مع نفسى : وما معنى هذه الحياة ؟

— لامعنى لها . فتن الذين نجعل لها المعنى . ونجعل لأنفسنا القيمة . فن
المؤكد أن هذه الحياة كانت وسوف تكون من غيرى .. فوجودى لاضرورة له .
لست ضروريا لأى أحد ..

— إذن لماذا استراح أناس آخرون إلى حياتهم ؟

— أحسدكم على ذلك . ولكن لا أعرف كيف . إن كل إنسان قد اختار
ما يريه . أو استراح إلى الذى اختاره . وأبعد رأسه عن هذه السخافات الفلسفية
والدينية والتاريخية التى حشد بها رأسى حتى انفجر .. إن الذى يتخيل في كل ليلة
أن في غرفته عماريت .. وأن في فراشه حشرات .. وأنه لن ينام حتى الصباح ..
وأنه لو أغنى ولو خطه فسوف يموت .. إن مثل الإنسان « المسكون » لن ينام !

وقد نام أناس لأنهم لم يفكروا في شيء . ثم أقول ! على لا . أن يتفق شيئا
لرأسه ، وشيئا لعقله وقلبه ، وأن يتمدد وينام .. وصحواصح ليانام أهلاً ، ومن
نومه الهادئ وصحوه الناعم ، تكون حياته اللينة

وأقول لنفسى

— إذن لا توجد هناك هوم فكرية ؟

— مثل ماذا ؟

— أين الله ؟

— لا أحد يعرف .

- لا أحد ؟

- نعم لا أحد .

- وما هو الله ؟ وما حكمة هذه الحياة ؟ التافهة وما معنى وجودنا الأكثر

تفاهة ..

- أما أن حياتنا تافهة . فهذا صحيح . فلا أحد يعرف معنى هذه الحياة وما حكمتها . ونحن لانعرف الله . لأن الله أكبر من أن يعرفه الإنسان . فالعقل صغير . والعمر قصير . والعلم لا حدود له .. فنحن بقولنا الصغيرة ، وبوسائلنا المتواضعة ، نريد أن نعرف الحقيقة المضمقة الوسعة الشسعة ، التي لا أول لها ولا آخر .. كيف ؟ إنني دائماً أقول : كما أن الإنسان لا يستطيع أن يقيس السماء بالشبر . فإن العقل الذي في حجم الشبر : لا يستطيع أن يحيط بالله ليعرفه ويفهمه .. لاعدنا عقل ، ولا عندنا علم ، ولا عندنا عمر . ولكن البشرية في ملايين السنين من عمرها سوف تعرف شيئاً ما .. فنحن لسنا إلا لحظات في عمر العقل أو محاولة الفهم عبر ملايين الملايين من الناس ، والملايين الملايين من السنين . وفي كل الحالات سوف تصدق علينا الآية الكريمة التي تقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

- بالأمس واليوم وغدا وبعد غد بملايين الملايين من السنين .

مثلاً : ما الذي تستطيع أن تقول لطفل صغير عن نظرية النسبية .. ما الذي تستطيع أن تقول لرضيع عن أشعة ليزر .. كيف تقوما وكيف تفقهما .. أنت لستطيع وهو عاجز عن الفهم .. ونحن في طفولة العقل الإنساني ..

وعندما كنت أدرس الفلسفة في الجامعة كنت أغبط نلامنق وأحسدهم :
إنهم يصدقون ما أقول . نرى يصدقون ما لا أعرف أنا كيف أصدقه . استرحوا إلى

ولم أمترح إليهم . فهم أحسن حالاً .. إنني مثل شجرة تلسعها الشمس ، وفي ظل هذه الشجرة ينام ويلعب أطفال صغار !

وكتبت وصية فقد قررت أن أنتحر مرة أخرى . واستأذنت زوجتي في شيء واحد أن تسمح لي أن أموت تحت كتي . وأن تكرمي بإحراقها معي . فهذه الكتب لم تنفني . وعندما أحترق أنا وكتبي أكون أنا المحرق والمحترق .. تكون كتي هي الموقود ويكون شحمي هو الزيت . وأصبح كم قاذب الشحار كم من الشاوي :

حطمتني مشما حطمتها

فلأنا منها وهي مني : شظايا !

وكتبت قصة طويلة اسمها « عريس فاطمة » والقصة ليست مرثية . وإنما هي أنا . وإذا كان الأديب الفرنسي يقول عن « مدام بوفاري » بطله قصة : « إن مدام بوفاري هي أنا - فأنا أستطيع أن أقول عر فاطمة - أنا بفس .. أو قصة التي لا نجد لها عريسا ، أو أنا العريس المجهول الذي اسندت الطرق في وجهي لكي أصل إلى فاطمة هذه . ولكن من الذي سدانطرق ؟ أنا . من الذي جعل حياة فاطمة وبيت فاطمة جهنم ، لا حياة فيها ؟ أنا أيضا . إنها حيرتي . إنها دوعتي أنا الذي ابتدعتها . وأنا الذي خلقت مشاكلها : ومن بين مشاكلها جماعها وشبابها ورقها . وحسوبة الحياة حولها . وصعوبة لأب والأم والإخوة والمجتمع كله . ما احل ؟ لم أحد حلا . وتوقفت بالقصة . أو توقفت في القصة قبل النهاية . وصت دون تكله أربع سنوات . وتذكرت أن قصتي مثل « بيت الأحلام » في مدينة رابانو على الريفيرا الإيطالية

فالبيت لم يكمله الذي بناه . وقال الناس إنه كالأحلام جميلة ، ولكنها ناقصة

إلى أن تتحقق . فما الحل ؟ بعد أربع سنوات وجدت الحل ، جاءت البطلة في نهاية القصة فهاكمنى . وتساءلتى : أنت الذى جعلت كل شيء صعبا . بل مستحيلا . ولذلك لم تنجح فى أن تفرجنى . إن المؤمنين عدة يقولون احل ، قبل أن يعضوا مشككة . • يشنون العرق والكبر . • قبل أن يهكروا فى صريقة الحرب .. ولكنك لم تفكر فى شيء من ذلك .. هل أنت هكذا ..

قلت : نعم هكذا .

• وما مشكلتك .

• كثرة جدلا مشاكل ..

• وإذا كنت غير قادر على أن تحل مشاكلك فكيف تحاول أن تحل مشاكل الآخرين .. إنك مثل الرجل الذى تحدث عنه الخبوص سافر به احدى حاول أن بعد حبات القمح فى حبه الأيمن : فلم يستطع . واهتمنى إلى حل لكى يعده . فلأحبه الآخر فامسح أبيض . ليحس ما فى الحيس معا . أنت أيضا عجز عن حل مشاكلك .. فمخنت مشاكل لتحل المشاكل معا . ولكنك لا تستطيع .. وانتهت القصة محاكمة البطلة . وحلها لمشاكلى . وبقيت مشاكلها هى بلا حل !

ولعلك تلاحظ أنى أمضى فى عدة طرق فى الماضى والحاضر .. لأن العقل الإنسانى كذلك : قديمه واضح . وحديثه غامض . ومستقبله لاعم .. والعقل جاول .. بهم كل ما هو واضح عده . ههه كل ما يفسده عليه الحبر .. وهذا يكون سكة أدبية فلسفية : أن إحلا طهر على مسرح وراح يبحث عن مفتاح ضاع منه ليلا . فاقترب منه رجل الشرطة ليأخذه : ماذا ضاع منك ؟ قد مفتاح ..

سأله الشرطى . وأين ضاع منك ؟ فقال الرجل : فى أول الشارع ؟ قال الشرطى : فى أول الشارع وتبحث عنه هنا فى آخر الشارع ؟ فأجاب الرجل نعم .. لأن هذه هى المنطقة الوحيدة التى بها نور !

وأحسست أنى مواطن على .. أو على الأصح إنسان ليس له وطن . وتمنيت أن أكون لاجئا دينيا - إلى أى دين . أن أتوطن .. أن أطلب اخسية من أى معبد . أن أجده الراحة من أى موقع .. فقام آخر دينى ، ولا أحد اختار دينه . وإنما وجدتنى على دينى ، ولن أستطيع ، لا اليوم ولا غدا . أن أدرس كل الأديان لأختار واحدا من وقيلوب فى الدنيا هو الذى نغلبه من دينه إلى ديانت أخرى . أكثرهم جواسيس على الأديان .. وأقنهم طيون ؟

ولكن كيف أقطع دينى من نفسى . أو كيف أنقى نفسى عن دينى .. كيف أقطع من نفسى ما هو جوهر نفسى ؟ لا أعرف كيف . ولكنى أتصور ما يحدث شعاب فى أصغر خبيثة عده . تمنع فى عصبية . فإبها نكس - أسهم - إحدى أرحلها . ولا تزال تقطعها وتبكي حتى تهرب ثلاث أرجل بعد أن تركت واحدة هناك - منتهى الألم والحرص على الحياة والنضجة من أجل الاستمرار .

ولا تزال الحياة أقوى من الألم .. ولكن المشككة أن الذى أريد أن أقطعه ثيابى العقلية والوجدانية . ليس يدا ولا رجلا . بل أكرم من ذلك وأخطر من ذلك !

ولا أحد كلمة واحدة تعبر عن تعبى .. لا أعرف إن كان المنى أحسست اسمه التعب .. أو الإرهاق .. أو الانهيار .. الضباب .. الشنات .. التبدد .. التفكك أو التلاشى .. لا أجده الكلمة المناسبة ..

وصرفت نفسى عن الفلسفة ، وارتقيت على علوم الحياة والنبات والفلك .

وعلى دراسات الجنس والسلوك الإنساني .. ودراسة ما وراء الحياة الإنسانية ،
وأشكال أخرى من الحياة الروحية - هربا مما أنا فيه ..

ولا أقول إنني اهتديت إلى شيء ، فأنا يائس من الاهتداء إلى شيء .
وأصبحت أبحث عن نفسي في الناس والكتب ، فلم أكن أستريح إلا لأناس
مثل ، فكانت أهرب من نفسي إلى عشرات الصور من نفسي .. وبذلك لا أخرج
عن نفسي .. وإنما أجلس إلى نفسي ، وأمل ما أقول وما أسمع ..

وفي العشر السنوات الأخيرة حاولت كل هذا واسترحت إليه . استرحت إلى
الحرب إلى شيء منعني وللقرى . وأدركت أنني أقوم شيء للآخرين . ولكن لا
أحقق شيئا لنفسي . لانعمت ولا استرحت ولا اخترت . ولا بددت ضلاما ولا
أوهاما ..

وحدثت بيني وبين كثيرين مناقشات . ومللت أسلحتي في النقاش ومن
لتلاعب بالأفكار . ووجدتني تحول من أحد حيوانات السيرك . إلى حيوان يشي
على الأرض .. تحولت من حامية تطير . إلى دجاجة على الأرض .. واكتشفت أن
يبنى مصنوع من أوراق الكونشينة : أرقام وصور .. ولكنه ليس بيتا يريح .
يصلح لأن يحتمي ويقيني ويضئ الأمان على نفسي . وعلى أيامي ..

وكانت روحي أسطوريا وأعني إحساسا كل احقق المفردة التي عجزت
عن الإيمان بها . وكان اقليل من المعرفة ادبية يريغها .. فهي اختارت للإيمان .
لأنها اختارت الدين .. أو اختارت الدين وأكملته بالإيمان به .. هل هذا ممكن ؟
ممكن جدا عند كثيرين ! هل هذا يريح ؟ نعم عند كثيرين . فإذا أدت لأشياء ؟
ماذا أرحت ؟ لانفسي ولا أجلا ..

ولا أعرف حقيقة من أين أتاه هذا الصفاء الروحي والشفافية الدينية ؟ إنها
تعتمد على وجناتها . على ماغسه مباشرة . على صلبتها بالله ، ووجوده المنام معها
ولها . كيف ؟ لا أعرف . ولكنها مؤمنة بذلك ، مستريحة إلى ذلك . وطالت
مناقشاتي وحيثي ..

وفجأة ، كان كل ما في نفسي وعقلي قد تعب . أو قد أضىء فجأة .. ورأيت
مالم أر . وسمعت مالم أسمع .. شيء رطب مضى مريح متعش في داخلي . افتتح
شيء .. أطل شيء .. امتلأت بشيء .. تسرب من داخلي شيء . لا أعرف ما
هذا الشيء ولا أعرف كيف أسميه .. ولكنه هناك .. أو هنا .. وعدت أقرأ
القرآن ، وكثيرا ماقرأت . وعدت أقرأ الحديث .. وسرا ، وكأني أستر على
حرية ، قرأت كتاب « عقيرة محمد » لعقاد و « محمد » للدكتور حسين هيكل
و « محمد » لتوفيق الحكيم و « على هامش السيرة » لنطه حسين .. و « سيرة ابن
هشام » وما كتبه المستشرقون .. ولا أقول إن هذه القراءة كانت عملا واعيا وإنما
وحدثت نفسي مأخوذ مسحوبا منحنيا أو محسوبا .. وفهمت مالم أكن أفهم .

وعرفت مالم أكن أعرف .. واكتشفت أنني أجهل الكثير جدا .. واهتديت إلى
الإسلام أسط الأديين وأكثرها تجريدا وأعظمها مهادا للإنسان والعلاقات
الإنسانية ، وأن تشريعها شامل .. وأن كل شيء فيه لم يقع له تحريف .. كل شيء
باق منذ ١٤ قرنا .. ولم أشأ أن أقول هذا لأحد ، ولكن ماذا توقفت ؟ لم أجد
إجابة عن هذا السؤال ، هل إذا وجدت إجابة عن السؤال هل أكتب ذلك ؟ نعم
وما الذي يمنعني .. إنني كتبت عشرات السنين ومشى ورأى مئات الألوف من
الشبان وانجهت بهم إلى كل وجهة إلا الدين .. فلم يكن الدين همي .. فقد كنت
مشغولا بكل الأديان . أو بالأحاديث لدراسة عامة في كل العصور . ومن
العدل إذا فهمت أن أقول .. ولذا اهتديت أن أهدي .. وإذا آمنت أن أذعو

للإيمان ، كما دعوت إلى أشياء أخرى كثيرة . وفي حرارة الشباب ومنطق الرحمة وتخصص الفيلسوف ..

وجاءت فكرة أداء العمرة . ومن غير تفكير وافقت . وبعد أن وافقت رحلت أفكر ، كيف أفعل ذلك ؟ ثم ماذا بعد ؟ وماذا يقال ؟ ومن الذى يقول ؟ وماذا يخفى أو يخرجنى فى ذلك ؟

نعم هناك ما يخرجنى . فأننا لست من رجال الدين ، ولا كان من الممكن أن أكون ذلك ... وبالدراصة لست من رجال الدين ولن أستطيع لأن الذى أعلمه قليل . والذى أفهمه أقل من القليل . وعمري لا يتسع لشيء كثير من الدراسة الدينية المتأنيئة .. أما الذى يخرجنى فهو أن أخرج عن النصف الذى سرت فيه . وأن أقفز من برواز الصورة التى وضعت نفسى فيه .. وهذه الصورة من صنعى .. وعرفى الدرس بها .. وإذا طلعت حريصا على أن أبدو مطابقة لصورتي . فأنادى أن تمجرت على وضع . تمجديت على صورة . وأصبحت صورتي أقوى منى - هى الصمم وأنا عاشقها ، صنعها وعبدتها . أنست وثنيًا .. أعدت نفسى .. من المؤكد أننى لست كذلك . ولكن فقط هى الأصل والصورته . أو هى الصورة والـ " لعبرة " ..

ولكن ماذا لو حصل ماذا أخاف أن يحصل ؟ لا أدري .

وكان لابد أن أصنع هويتين واحدة فوق والشية تحت وفوقها حرام من الحسد وكان امتحانًا عسيرًا . واجهت الناس فى البيت . وتدببت أن أنظر إلى عيونهم فأننا أكثر دهشة منهم . وخفت من البرد .. فأننا شبه عريان واضح رجل فى - شبيه من الجلد اسمه زنونة - يلبسها الفقراء فى مصر ، ويلبسها كل الناس إذا

ذهبوا إلى الأرض المقدسة .. يطوفون بغيرها حول الكعبة ، ويسعون بها بين الصف والمروة سبعة أشواط .

وتأخرت الطائرة عشر ساعات وعدت إلى البيت . وكان رمضان ، وتغيرت هل أحلج ملابسى . أنا أعرف أن هذا حرام . هل أستطيع أن أضع روبا فوق ملابس الإحرام . لا أعرف . سألت الصديق عثمان العبد ، فقال ما أعرفه . وحاولت أن أحد الشيخ الباقورى فقبل لى لمة يتناول إفطاره خارج البيت . وسألت عن الصديق أحمد فراج ، وكان يفرط فى غيريته ، ولكن هذا العام رأيت الشيخ أحمد طنطاوى فى التبريدون السعودى يقول - يمكن أن تصنع الزوب فالدين يسر !

وسألت الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف ، فسألنى : من أنت ؟ قلت : مواطن من مصر ، فجاب : يمكن جدا أن تضع الباطن أيضًا إذا كانت هناك ضرورة لذلك

وعدت إلى المطار . ولاحظت أننى أحول أن ألملم ملابسى . ولم يكن لذلك أى طاع - إنما أنا أريد أن أصرف الجيوب عني . أو أحول أن أقول للدرس لى عبر راص عن الذى أعنيه . أو أنى مرعوم صحيحا على ذلك .. ووجدتني أعطى رأسي وأصحب الفتوة حتى عيني . وكان سلوكى هذا نوعا من التخلق .. نوعا من إقناذ صورتي اننى عرفت بها الناس - وكلها محاولات صغيرة تؤكد أننى أفلتص ونسب أقل إيمانًا .

وفى الطائرة ومع الناس ومع أصوات الملبين أحسست أننى فى مسجد فى السماء وأن أصوات الناس وهم يقولون ليلى اللهم ليلىك . إن الحمد والنعمة لك والمثلث ، لا شريك لك ليلىك ..

شيء من دفعه ثم حرارة ثم كهرة . ثم ارتعاشه ثم زلزلة ، ولم أشعر بصوت حركات ولا بلوف . ومحة ربت العائز في مقار حبة عند الصخر . ولم أسأل نفسي ولماذا هذا اللبس بالذات ، أو لماذا عدم اللبس . ووجدت أنه سؤال لا معنى له . نعم لا أسأل أنفسا لماد رمتي الميجم في البيت ، والبنطون خارج البيت والكرافنة في الترسيمات والماليه في الصيف . وتعرى أمام الطبيب دون مناقشة . فهذه الملابس خا معان كثيرة . فنحن نتجرد من كل شيء . . لكن أمام الله عزاء . . مجردين من الملابس ومن الشهوات ومن المخاوف أيضا . . وأن تتساوى جميعا ، من نجد الثوب ومن لا يجده . . وفي ذلك طاعة وامتنال .

وفي سيارة انتقلت إلى مكة وفيها أول بيت وضع للناس : الكعبة . والكعبة مركز الإسلام . والحجر الأسود أقيمت عليه الكعبة . والمسجد أحرام أسواره عالية . . كنه يفصل دينا عن دين . وبشرا عن ملائكة . . وكأنه حائط صحن ، أو حجر صحن . . فالداخل مريض والخارج سليم . . الداخل ثقيل الذنوب ، والخارج بلا ذنوب . فله غفور رحيم . . غفور خطايانا ، وهو لذلك رحيم بنا . المعنى أمل وراحة ومثيرة على هذه الرحلة لم تنب فيها لاذعها ولا إيبا . . وإنما فقط تعب الناس في الوقوف والانتظار . أى تعب الناس من الناس . . وتعبت أيضا في محاولاتي التنكرية حتى لا أكون كما عرفني الناس . ولم أعد يهني ذلك . بعد ذلك . . فهذه صورتي . والذي يتغير هو البرواز فقط . . وكما ينبت الترجس من البصل ، وكما تنبت الفاكهة من الطين ، خرجت صورة أخرى لشخص آخر . خرجت صورة أخرى لنفس الشخص . . وكما تحدث المعجزات المسيحية فتسيل لوحات القديسين زيتا أو دما ، كذلك بدأت تنبض صورتي بأخياء ، بالحياة الأخرى ! . . ولماذا لا ؟

وتقدم منا طفل صغير . وقال : هل أطوف بكم وأسمى ؟ قلت . نعم . .

إنه طفل ولكنه يعرف ماسوف يقول : إننا نصلي وهو يعمل . . وكان الطفل يطوف بنا ويرفع صوته بأدعية مكسرة الحروف ومليئة بالأخطاء النحوية . إنه صغير . ولم أحول أن أصبح مايقوله الطفل وأنا أردد وراءه . فلنقواعد السحوية لاتهم الآن . . القواعد السحوية مثل البروتوكولات ومثل صور الجلوس والوقوف والأكل والشراب والتحية والبروتوكولات لاتهم . . وأعطيت عقل أجازة . . وأطلقت سراح قواعد النحو والصرف . . ورحلت أردد وراءه مايقوله . . وفي الشوط السابع حول الكعبة كان يقول : اللهم إني أسألك إيمانا كاملا ، ويقينا صادقا ، ورزقا واسعا ، وقلبا خاشعا ، ولسانا ذاكرا ، وحللا طيبا ، وتوبة نصوحا ، توبة قبل الموت ، وراحة بعد الموت . . رب زدني علما ، وألحقني بالصالحين .

وعندما نزلنا إلى بئر زمزم . . نسينا وشرنا قبل أذان الإفطار . ولكن ولا ذنب لنا ، فقد كان ذلك سهوا .

وكان الطفل ونحن وراءه نقول : اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا . وشفاء من كل داء وسقم . برحمتك يا أرحم الراحمين .

وانجھت مع الناس إلى حيث السمي بين الصفا والمروة . كما كانت تفعل هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام عث عن الماء . ويبدأ السمي عادة بهذه الآية الكرنية

« إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم . »

وخرجنا من المسجد الحرام إلى الشارع . . إلى الدنيا . . انتهى كل شيء . . انتهى ماجئنا من أجله . . وما بعد ذلك راحة ومنعة . . وقيل أن نحيث عن

فندق .. خلعتنا ملايسا في الشارع ، وارتدينا الجلباب . أما النوم فلا مكان لأحد ، وأخيرا عثرنا على بيت لم يتم بناؤه . واشترى صاحب البيت أو مديره مراتب من الكونتش . وتما على الأرض .. واستند في الليل إن كان يصديقنا أن يدم آخرون أمامه عرف . وأن يدم رجل طاع في الس . في التوايت وفي اسايو بالذات ، ولم يعترض أحد على نوم الرجل الشيخ ، وإنما أشفقنا عليه .

ووقفت مع عثمان العبد أمام هذا البيت . الذي أصبح فندقا الآن . نتأقش في الطريقة التي بنف بها إلى ليلك - ولم نجد مع فكرة . فر علينا رجل وأعطا كل واحد ريللا . وشكرنا له هذه المروءة .. وبعد لحظات اكتشفت أن هذا الرجل شحاذ

ونجست من ذلك ، وحاولنا أن نعطي مما معنا . ولكن لا توجد فكرة .. ولكن لا بد أن حدثنا قد هزت قلب الشحاذ ، فأعطانا هذه الحصة .. ولم يصهر في اليوم التالي . فتصلقنا بريلات على شحاذين آخرين !

وضطت نفسي أفكر في هذا الذي فعلت ، ولكن ما الذي فعلت ؟ لأشيء . يستحق الاهتمام . ما يمكن هذا إيمان وراحة قلبه وبعده .. وراحة هادئة دائمة سخية .. وأظن أن هذا ما أحسنت به . كأنني كنت أمشي بين الناس باسم مستعار . والآن أصبح الناس يعرفون اسمي .. كأنني كنت أنوارى وراء لوحة زائفة .. بعيدة عن طبعي . ولكنها قريبة من قلبي .. والآن أنا الصورة وبداي هما الجواز .. وإيماني هو المسار الذي يسلك الصورة ويبثها على جذون السماء وأبقت أنني ارتويت ، لأنني شربت من بئري . لا من أنهار الآخرين .. وأنتي فتحت قلبي ، أوسع مما فتحت في ..

فليست معرفة فقط هي التي تؤيد الإيمان ولكن الإيمان أيضا يؤيد المعرفة . والإيمان مثل « أملاح الحيو » التي توصل في الصور عند التحميم .. إن هذه الأملاح هي التي تبرز الصورة ثم تثبت ملامحها .. ومثل الصمغ الذي يمسك الأشياء .. ومثل السوائل التي تثبت الخيوط في اللحوات . وثبت شكل الشعر .. وثبت ألوان السيارة والطائرة ..

وآدم وحواء طردا من الجنة لأنها عروا أنها قد ارتكبا خطيئة .. وتعطيا ورق التوت لأنها عروا أنها عاريان . ولكن لولا هذه المعرفة البسيطة ودرجة بها . ما كانت هذه البشرية على لأرض . ونعرفة مؤمنة . ولكنها ضرورة مؤمنة وحيوية .. وفي قبائل الأشتاني بأفريقيا يقولون إن الله خلق آدم وحواء في الجنة . وخلق اثنين آخرين هما آدم وحواء على الأرض . وبذل آدم وحواء من السماء إلى بلاد الأشتاني . وعاش هؤلاء الأربعة دون أن يعرفوا كيف يتناسلون . ويقال إن حبة محبة ونكاحا ليست سامة حامت في أذن السيدتين وقالت لهما : ماذا لا يكون لكما أبناء .

ولم تكن السيدتان تعرفان ذلك . وجاءت الحبة وطلبت إليهما أن يتوجها رجل وامرأة وأن يتقاربا .. وسوف نحى الأولاد بعد ذلك ..

وحامت الأولاد وصارت لأمهات والآباء والأولاد . وراحوا يبعنون الحبة التي دلتهم على العذاب عن طريق اللذة .. أو على اللذة التي تؤدي إلى العذاب .. وملايين العذاب ..

ومن أعياذ الأشتاني أن الرجال يقلصون الحبة ، والنساء يلعنن .. ولا أظن أن هذا معقول ، فمن قال إن الرجال بلا عذاب ، وإن النساء بلا لذة ..

وأخـر تطوـر لدبـاية الأـشائـنـى أن أـصـبـحـت الحـيـة حـيـوانـا مـقـلـمـا .. أـى اتـفـق
الـرحـال والـسـاء عـلـى حـيـوان هـام هـي أـه المـعـرـفـة ، وأـم الحـيـاة كـنـها .. وأـنـها هـي
المـعـرـفـة وأـنـها هـي الإيـمـان بـها ..

وأـن المـعـرـفـة لـا تـسـتـحـق اللـغـة ، إـلا أـنـها ضـوء إـلى الإيـمـان ، وأـن الإيـمـان
لـا يـسـتـحـق سـمـعة لأـنـه راحـة فـى الضـوء و فـى الطـريق إـلى أن نـعـرف أنـفـسـا و عـيـرنا ،
فـنـعـرف الله والـكـوـن .. عـلـى قـدر ما نـسـتـطـيع !

ثم كان الطريق الطويل جنا إلى المدينة قصيرا .. هـكـذا كان إـحـسـاسـنا .. و جـاء
المـغـرب وتـزلـنا تـوضـاً مـن ماء المـطـر .. واتـجـهـت إـلى مـكـة .. و صـلـيـنا .. وبـسـهـولة تـم كـل
شـئ .. بـلا تـفـكـر .. واسـتـرحـت إـلى أن شـيـئا يـم دون أن أقـوم باستـفـاء مـبـاشـر فـى
داخـل .. فيـقـول العـقـل : لا .. وبقـول القـلـب : نـعـم ..

وتـردـد أصـوات ضاحـكـة ساخـرة .. ومـحاوـلات أـخـرى لإسـكـات كـل
الأصـوات .. و لكن تـم ذـلك بـلا صـوت ولا حـركـة ولا حـرج .. وانـتـهـز فرـصـة
لأـتـرحـم عـلى والـدي .. كـما ربيـان وتـعـذبـا وتـعـذبـت صـغـيرا ..

وفـى المـدـيـنة أـحـسـت بشـئ أـقـوى مـما أـحـسـت بـه فـى النـكـبة .. فـي مـسـجـد
الـرسـول فـد دـفن الرـسـول وأبو بـكر وعـمر .. هـؤلاء أعـرـفـهم وأخـى لـعـظـمة والعـبقـريـة
والإيـمـان والـنـصـحية والبـاسـطة .. هـنا شـخـص غـير مـعـام الدنـيا .. هـنا شـخـص كـفـر بـه
أهـله .. وتـبع غـيـرهم .. ثم تبـعـوه .. شـخـص لم يـتـعلم القـراءـة والـكتـابـة .. و لكن الذـي
يـقـوـنه فـلسـفـة وحـكـمة .. ومـهم مـسـئـل والعـلاـقـات الاجـتـماعـيـة والسيـاسة والحـكـم
والـحـرب ودعـوة إـلى ما هـو أفضـل .. مـن أين تـعلم ذـلك كـله .. هـذا الزاعـى للـغـم
الأـمـى .. ما هـذه الأحـاديـث .. ما هـذه الأحكام ؟

ما هـذه التـفـسيـرات .. ثم ما هـذا القـرآن .. كـلام لـيس لـه مـثـل ولا نظـير .. ولا مـن

عـده .. إـنـه يـتـعلمـه أولـا بأول .. كـكـل النـاس .. لا دـخـل لـه فـيـها بـوحـى بـه إـلـه .. إـنـه
شـخـصـيـة عـظـيـمة .. تـعـذب ومـرض ومـات .. وتـعـذب أكـثـر مـن النـاس ، ومـرض
كـكـل النـاس ، ومـات لأـنـه ما دام فـد و لد ، فـلا يـد أن يمـوت .. إـنـه إنـسان مـن رـجـل
وأمرأة ، وكـانـت صـلـمة المـسـلمـين بـركـانـيـة عـندما مـات .. نـقـد نـسـوا أـنـه سـوف
يـمـوت .. بل إن أبـا بـكر بـكى عـندما سمـع بـتـو الأـبـة الكـريـمـة .. اليوم أكـمـلت كـم
دبـيـكم و تـمـت عـيـبـكم مـعـنى .. ورـصـبـت لـكم الإـسـلام دـيـة .. أدرك أبو بـكر ..
كـل شـئ قـد تـم وأن صـاحـب الرـسـالة فـد مـعـها .. و بـس بـعد ذـلك إـلا المـوت .. ولم
يـخـطـر عـلـى بـالـه أـنـه سـيـمـوت ..

تغـير الكـثـيـر فـى داخـل ..

وأعتقد أننى كنت مثل سفن الفضاء التى تعرضت بطايرتها لأشعة الشمس ..
فامتلات .. لقد امتلات .. بكل ماهو مريح .. ومضى .. وأتت أعنت من أشياء
كثيرة .. وأن رواسى قد أربلت .. وأن هوائى الملوث قد تى تنما .. وأن دمي قد
نقل خارجى .. وأن دماً جديداً يجري فى عروقى .. كأننى ولدت .. أو تولدت من
شئ آخر .. أو من كائن آخر .. وإننى عدت طفلاً فى كعبة المعرفة الإنسانية ..
وجئت فى بطن الدين .. وإننى فى حاجة إلى « حبل سرى » أتغذى منه

ولا أعرف كم تطول هذه الطفولة .. كأننى آمنت بتناسخ الأرواح .. وكأن
روحاً أخرى قد حلت بدنى .. وشيئاً غريباً آخر عرفته .. كأن لأجسام لاتنف ..
ولكن الأرواح هى التى تنب فإن نعت أرهنت الأجسام كـنـه الساق الذى
يسوق حياتى .. كان مضموراً مسطولاً قلقاً ، وجاء سابق جديد .. يدهأ أكثر
استقراراً ، وقدماه أكثر اتزاناً ، والطريق أمامه أوضح ، والمهدف أقرب ..

كأننى لست أنا

ولا أعرف كيف أعبر عما أعرف ، وعما سوف أعرف ، لا أعتقد أنني قادر على ذلك . فما حديث العهد بك المعنى الدينية . وحديث المعروفة بنفسى الرضىة .

وتذكرت المصان الكبير حوحد علما كتب في « يومياته الشخصية » علما هرب إلى جنات المحيط الهادى .. كتب يقول : « أريد أن أحب ولكنى لا أستطيع . أريد ألا أحب . ولكنى لا أستطيع » ولكن من المؤكد أبى سوف أستطيع .. أن أحب ! » .

صفاء عقل وانشراح صدر ووضوح رؤية !

من هو الله ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ومنذ متى ؟

وليس أسهل من أن أفتح أى قاموس فلسفى أو دبنى وأقلب عشرات ومئات وأتوب العبارات التى قبيت لها من كل العصور للإجابة عن مثل هذا السؤال .
فكل الأسئلة سهلة .. ولكن الصعوبة فى الإجابة .. وأصعب من أية إحدة أن تكون مقنعا لمن يسألك ..

وقد تطور معنى الله وصورته عند الناس . من أيام الحياة البدائية : إلى الحياة العصرية . كل عصر يجتاز المعنى أو الصورة التى ترسخه أو التى يستريح إليها .. ومن المؤكد أن الإنسان يتقار الله على صورته هو ..

مثلا : وأعود إلى دوائر المعارف الفلسفية والدينية - يقال : إله المروج لا بد أن تكون له شعاع عليفة . وشعر معد وحبود أنوسية . وإنه الإعريق كد مشهم أشقر الوجه ، أصغر الشعر ، أزرق العينين !

وانشاعر جيته يقول : كما يكون الإنسان يكون ربه !

الله يدخل إلى الإنسان من باب سرى !

الطريق إلى الله يبدأ من هنا : من القلب !

الله آه فى ضمير الإنسان لم يفصح عنها بعد !

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الإنسان عضو حي . والله هو الحياة !

هناك دليل أكيد على وجود الله : هذا الخير وقوانين السلوك الأخلاق والاجتماعي التي تراعت لرجالها الطيبين من الأنبياء والأولياء والقديسين !

— قالوا تولى !

لو عرف الله ، لعرفت أنه قادر على كل شيء !

يقول سرفانتس : عندما يشرق الله ، فإنه يشرق للجميع !

إله المتوحشين متوحش ، إله التجار تاجر . إله الصليبيين صليبي !

حيثما يكون سلام ، يكون الله !

لم يفسر شيئاً من لم يفسر الله !

كل إنسان لنفسه . والله للجميع !

كل شيء لا يتجه إلى الله ، ضاع !

ويقول القرآن الكريم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

« قل أغيد الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء » .

« في خلق السموات والأرض واحتلاف الليل والنهار والثلث التي غرى في البحر بما ينعف الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أيا ما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى » .

« ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل

شيء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

وقال لموسى عليه السلام : « لم تراني . ولكن انظر إلى الحبل من استقر مكانه سوف ترائي » . فلم يخل ربه للجل . حملته ذك . وحر موسى صعداً . فما أوقف قال سبحانه تست إنك وأول المؤمنين قال يا موسى إن صطيتك على أساس برصاقي ويكلامي . فخذ ما آتيتك ، ولكن من الشاكرين » .

« ما اتخذ الله من ولد » وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق . ولعل بعضهم على بعض . سبحانه الله عما يصفون . عام الغيب والشهادة فتعنى عما يشركون » .

آيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم . أوضح وأعني من كل ما قيل في وصف الله ووصفاته وقدرته المطلقة على كل شيء .

أنت على نحو ما صورة مصغرة من الله !

في وجوه الرجال والنساء والأطفال ، أرى الله !

يقول باسكال : الوجود الأبدي ، يجب أن يكون أبدياً . وإلا لا معنى له !

« إذا كان الله معنا ، فلأننا معه ، وإذا كان معنا ، فلا أحد ضدنا !

يقول شو : احترس من كل إنسان اتخذ له إلهاً في السماء !

من يكون خادماً لله ، فقد اختار له سيداً عظيماً جداً !

الله يحب الأفعال ، ولا يحب الأقوال !

أنت تفكر والله يدبر !

أنت تستطيع والله يريد !

قال فولتير : « إذا لم يوجد إله ، فن الضروري للإنسان أن يخلق لنفسه إلهاً !

ساعة وجدناها على الشاطئ . الساعة تدور . لا بد أن أحدا صنعها . هذا
الأحد في مكان ما في زمان ما !

ليست الساعة وبكى الزهرة . إن الساعة نظام ولكن الزهرة نظام حي . وهذه
أعقد وأصعب وأروع من ساعة وجدناها على الأرض .

إنه تستطيع أن تتخيله ، لأن تراه . وأن تحسه لأن تصفه - عبارة مشهورة
للقديس أوغسطين !

من يخاف الله : يخافه الناس !

إذا لم تلتق بالله في أى مكان ، فلائه لأمكان لك !

وليس في قدرة الإنسان العقلية أن يعرف الله . ولا أن يفهم قدراته . ولكن
يفهم الإنسان لا بد أن يعيط بالشئ . أى يكون هو أكبر من الشئ الذى يريد
فهمه : وأن يقلبه في يديه أمام عينيه . ويعدده أبعاده ووزنه ، وأن يصبح قادرا على
أن يتلأ به نفسه .. وأن يعدده عن نفسه بعض الوقت ليتأمله .. وهذا غير ممكن
للإنسان في أى عصر وفي أى شئ - ومن أى ثقافة أو فلسفة .

مثلا : ما الذى تراه في الشارع الذى تمشى فيه كل يوم : أنت تنظر إلى
الأرض معظم الوقت . حتى لا تصطدم برصيف أو بالوعة أو صوة أو بالناس أو
السيارات - فلا ترى ما فوق رأسك ، ولا مانتة قدميك . ولا قدميك .. فإذا
كانت لك سيارة فما الذى تراه من نافذة السيارة .. إنك ترى كل ما هو في مستوى
رأسك وفي مجال بصرك .. فإذا ركبت طائرة فما الذى تراه من مدينتك . من بلدك .
من الأرض .. وأنت فوق السحاب .. وما الذى يراه الطيار نفسه ؟ - وإذا ركب
الطيار إحدى مسن الفضاء .. فما الذى يراه من الأرض . وإذا هبط على القمر
الذى يراه على القمر . وما حى يراه في الكواكب الأخرى .. فعلى ما وصل إليه

الإنسان أنه مشى بقصه كيلو مترات وجمع بعض الأحجار وعاد إلى الأرض في
حفظ وصيانة عشرات الألوف من الرجال والأجهزة الالكترونية تحسب عليه
أنفاسه وجوعه وعطشه وعرقه ودقات قلبه ووزاير بظلوله . فما الذى رآه .. إن
الشاب العبط حادريين . أول رائد فضاء . عندما ارتفع في الكوكب الصاعى
قال : ولكنى لم أجد الله !

هذه عبارة ساخنة تدل على أنه إنسان بسيط سائق مركبة فضائية فقط .
مشدود إلى عشرات الأربعة . منظور من عشرات العدسات . ويرى الفضاء
الخالل أزرق أو أسود ، ويرى الأرض كرة حمراء مغطاة بسحب بيضاء .. ولم يجد
الله . كان الله كوكب يظهر من يرتفع عن الأرض مائتي كيلومتر . وهذه الكيوب
مترات في هذا الفضاء الذى يقاس بملايين الملايين من السنين الضوئية (النسبة
الضوئية الواحدة ١٨٦ ألف ميل $\times ٦٠$ ثانية $\times ٦٠$ دقيقة $\times ٢٤$ ساعة $\times ٣٦٥$
يوما = أحسبها أنت ثم أخبرها في ملايين الملايين الملايين)

ما الذى تراه في عالمنا المحدود .. إننا نرى جزءاً تافهاً من كل شئ .. وعندما
استخدم الإنسان العدسات المقربة . اتسع حوله الكون . فالعدسات ليست إلا
بديلاً منظوراً للعين المجردة .. وبعد ملايين السنين سوف تتطور أدوات الرؤية
والحساب . ويتطور العالم من حولنا ويتسع وتندرك ضآلة الإنسان وما يعرفه
الإنسان .. وما يستطيعه الإنسان .. ويصعب عليه مرة أخرى أن يعرف من هو
الله .

فالإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى الشمس بالعين المجردة . وإنما ينظر إلى قرصها
في الماء ، أو من خلال منظار أسود .. والإنسان لا يستطيع أن يرى الله ، وكيف ؟
وعندما سأل موسى وبه قال له الله : لا تستطيع . وأنا أأشار الله إلى الجبل .. أو

لمسه . أو أشع عليه .. تحطم الجبل : فكيف لو حدث ذلك نموسى نفسه .
فالإنسان هو هنا الموسى الذى يريد أن يرى لكى يصدق : ولابد أن يصدق .
فماذا حدث .. حدث ما لم يطقه موسى ..

ونو نظرنا إلى ما تحت الميكروسكوب إلى خلية حية .. لوجدناها ثورة حياة
منظمة . والعين المجردة لا ترى الخلية . ولكن الميكروسكوب يستطيع . وسوف
تتطور هذه العنيمات المكرة فتصبح خلية متحركة حية مثل ملعب كرة القدم
ولكن فى نظام محكم .. إن النجوم فى السماء ليست قطعاً من الأحجار متوازنة
الحركة والدوران حول نفسها أو حول غيرها .. ولكن الخلية الضئيلة الحية هى
شئ يبعث على الرهبة ، وعلى الاخاء لأنها محبوبة لله - إذا صح أن نقول إن
الله خلق شيئاً تافهاً !

والإنسان حيوان متدين ..

أى لابد أن نجد تفسيراً لما يراه وما يفكر فيه .. وما يخاف منه ، وما يطمئن
إليه . ولذلك فكل إنسان له دين . الذى يؤمن والذى يكفر . دين سماوى أو
أرضى أو سياسى أو اقتصادى . وفى كل دين أناس ذو عظيم الاحترام أو
القداسة .. ولهم أقوال . وهذه الأقوال هى علامات نور فى طريق الحياة المظلم
شبهات الإنسان وأحقاد الناس ومحوف احكام وعقوب . إن الحياة ظرفان
وكل طوفان يكون له نوح . وتكون لنوح سفينة . ومهما كان نوح نيا ، فإنه سيجب
فى أقرب الناس له من يعصاه - نوح عليه السلام كان له ولد عصاه وغرق

وكل الأديان تدعو إلى الصلاة . وتدعو إلى الصوم . والزهد فى الحياة
والسلام بين الناس . وكل الأديان تدعو إلى الجمع بين الأماكى المقدسة ولك

الإسلام ليست فيه وثنية . لاصم ولا أحد مقدس ، إلا الله .. والإسلام أكثر
الأديان تجريداً .

وفى الأديان الأخرى من يعبد صنماً ، أو يعبد شجرة أو بقرة .. أو نورا . أو
ناراً .. أو يحنى أمام صليب أو أمام قدس الأقداس وتورا موسى ..

ولكن من الضروري أن نعود إلى حياتنا ونحن صغار وتنسأف : كيف تعلمنا
احساب !

كان يقال له واحد . أى برتقالة .

ويقال اثنان . ندرجات ..

ويقال : ثلاثة كلاب ..

وبعد ذلك تنهى مرحلة تقول : واحد .. اثنان .. ثلاثة . من أى شئ .. من
الأشياء المادية أو غير المادية ..

ولابد أن بعض الأديان قد ظهرت فى طفولة العقل البشرى ، فهى لم تصل
إلى التجريد .. وكان لابد أن يقال لها : إن الله شجرة أو بقرة .. أو نهر . أو جبل .
أو صاحب .. أو شمس ..

والذى يقبل الصليب الذى صنعه إنسان مثلاً : ليس وثنية ، ولكن الصليب
رمز إلى معنى العذاب الذى لقيه المسيح من اليهود .. والذى يعبد النار والنور
والسحاب . ينسب أن هذه جميعاً رموز إلى معنى أكبر . إن الإنسان لا يعبد الرموز .
وتأدبسة هذا الرمز . يستحضر المعنى النبوى . ولكن كثيراً من الأدب قد فُتت
فى مرحلتها البدائية ، دون تغيير ..

وكل ما فى الإسلام من معالم تاريخية ليست إلا رمزا إلى معنى أكبر .
فالكعبة ليست مقدسة . وإنما هى أجدار فوق أحجار . والأحجار عادة

والكعبة رمز .. وأحجارها رمز .. وأحجار الصفا والمروة رمز .. وأحجار
عرفات والمزدلفة رمز أيضا .. والأحجار التي يرحم بها الحجاج الشياطين
ليست إلا رمزا أيضا .. وإن كان بعض الناس يتصورون أن رجم الشياطين ،
هو رجم حقيق خيوط حقيق . ولذلك لا يمكن رجم الناس ببقاء
الأحجار الرمزية ، بل يخلعون نعالم ويضربون الأحجار التي هي رمز
للشياطين .. وبعضهم يطلق الرصاص على أحجار الشياطين .. وبعضهم
يصرخ قائلا : أنت الذي جعلتني أطلق زوجتي .. أنت الذي أعدتني إلى
السفرة وإلى الحمر .

مع أنه لاشيطان خارج الإنسان . فالشياطين هنا تحت ملابس .. و
جلودنا .. والزعات الشريرة مثل كريات الدم الحمراء ، إذا كانت الزعات
الخيرة هي الكريات البيضاء . الشر والخير معا . النور والظلام معا . الحياة
والموت معا .. ولذلك فإن ديانات قديمة جعلت العالم مصرعا فذبن العلويين
أو الفاسدين ..

وكل شيء رمز ..

والمطلوب من المؤمن أن يقف وأن يتأمل وأن يفكر .. وأن يحس الوقت .
ليستعرض حياته أمس واليوم وغدا .

والرسول يقول : الحج عرفة ..

أى أن الوقوف في عرفات هو الحج . ولا وقوف في عرفات . وإنما هو
جلوس .. وهدوء .. وعلى الإنسان أن يفكر . وأن يقرأ القرآن .

ونكن الذي يحدث عادة ويسب الزحام ، والبحث عن الطعام والشراب

جدا . كلها قطعت من أحجار مدينة مكة . والحجر الأسود حجر عادى .. حجر
أسود في أحمر في أصفر .. قيل من البارث وقيل من الأحجار البركانية ، وقال
بعض العلماء الفرنسيين منذ أعوام ، إن هذا الحجر لا يمكن أن يكون من
الأرض .. ولابد أنه سقط من كواكب أخرى بعيدة .. ولكن المسلمين يصرون
على أنه حجر عادى .

والكعبة نفسها ضوفا ٤٠ قدما وعرضها ٣٨ قدما وارتفاعها ٥٠ قدما ..
والحجر الأسود يبدأ به الطواف . وعنده ينتهى الطواف سبع مرات حول
الكعبة .. والحجر الأسود ليس قطعة واحدة .. وإنما ثلاثة أحجار كبيرة
أصقت بعضها إلى جوار بعض ، وحولها قطع صغيرة من نفس الحجر
أيضا .. وكانت الكعبة قديما في طول قامة الإنسان . وكانت تغمرها السيول .
وكانت تلف حولها الأصنام . وهدمت الكعبة وبنيت .. ونقل الحجر الأسود
بعينا عن موقعه أكثر من عشرين عاما .. وأعيد بعد ذلك .. وبالإسلام ألقى
النور على الكعبة وأصبحت مكانا محرمًا

وغير الكعبة مثل مقام إبراهيم .. ومثل أحجار الصفا والمروة .. والسعى
بينهما سبع مرات أى حوالى ثلاثة كيلو مترات ..

وتغير كل شيء الآن .. وضع الزحام والحرايب حول الكعبة وفي أماكن
اسمى بين الصفا والمروة . والذين يستطيعون الطواف أو السعى ساروا على
أقدامهم .. أو حملهم الناس على دمسهم .. أو دفعوهم على مقاعد لها
عجلات بين الصفا والمروة .. وأضى كل شيء بالكهراء .. ولم يعد الناس
يصفون عراة حول الكعبة ، ولا الباعة والحيوانات تعترض سعى الحجاج بين
الصفا والمروة ..

والمأوى ووسائل الانتقال ، ألا يجد الإنسان وقتا لشيء .. اللهم إلا لحظات فبيلة .

ومع زيادة عدد الحاجاج عاما بعد عام ، لن يجد الإنسان وقتا للتأمل ، أو التمتع .

والإسلام يريد من المؤمنين أن يحربوا ذلك عمليا . أن يشعروا . أن يستحضروا المعاني التاريخية . وأن يروا ماذا حدث . وكيف حدثت التضحية والمعاناة والصبر . والنصر في النهاية .

ولم يعد الحج عملا شاقا . فالعلم الحديث قد يسر للإنسان كل شيء . فهو في ساعات يصل بالطائرة . وساعات يصل بالسيارة أو الطائرة . وفي دقائق يتنقل . ويقوم . ويقرأ ثم ينطلق بجمع الحمرات . ثم يطلق يلقيا . وبعد ذلك يذبح الضحية .. وينتهي كل شيء !

ولكن أناسا من بلاد بعيدة لا يجدون وسيلة لهذه الحركة السريعة . بعضهم يئس ماشيا عاريا وأمله كبير في الله أن يموت في الأرض المقدسة . ونساء حاملات يتعذبن وينساقطن ، وأمنهن عظيم في أن يلدن في الأرض المقدسة .. وأناسا يمتلئون الألوف بطوفون وقد انتهت قراهم . وجفت أجسامهم .. وحققوا شعورهم . ويحدث ما يحدث في الزحام عادة . في أي مكان ، أن يتخبط الناس بعضهم في بعض . ويحدث أيضا ما يحدث في أي مكان يتحرك فيه الإنسان جريا وطوفا وسعيا أن يعرق - ككل كائن حي - وأن تكون لتعرق رائحة .. وأن يضيق الناس بهم .. وهذا الضيق جزء من المشقة .. والإنسان يثاب على قدر المشقة ، ولذلك يحرص هؤلاء المؤمنون البسطاء على أن يتضاعف عنايتهم طمعا في الجنة عند الله ، إنهم مؤمنون

وقد وعدهم الله بذلك ، وآمنوا . وجاءوا طامعين في الله .

ويحدث في كل زحام : أناس مشغولون بالله ، وأناس مشغولون بالناس . وتمتد الأيدي .. هنا ممكن ، فالإنسان هو الإنسان . والذي يرى الكعبة لأول مرة ، وربما لآخر مرة في حياته ، غير الذي يراها كل يوم .. هذا مشغول وذلك في شغل .. هنا حاج ، وذلك طالب قوت . من أي طريق .. فالإنسان هو الإنسان في كل مكان ..

ويحار الإنسان بين أن يشكر الله على أن يسر له كل شيء .. وبين شعوره بالحجل لهؤلاء الطاعنين في السن ، الذين يحملون طعامهم وشرايهم وخيامهم على رؤوسهم ساعات وساعات في الطريق إلى الكعبة أو في الطريق إلى عرفات وجبل الرحمة ، والمشعر الحرام (المزدلفة) ..

وطبيعي جدا أن يتساءل الإنسان ولكن مامعنى هنا ؟ والمعنى هو أن الإسلام يطلب من الإنسان أن يطيع ، وأن يتأمل وأن يفكر وأن يتأنى وأن يصبر وأن يؤمن إيمانا مطلقا بالله ورسوله وقرآنه

ومن حق الإنسان أن يتساءل : ولماذا الصلاة خمس مرات .. ركعتين وأربعاً وثلاثاً .. ولماذا رفع اليدين ولماذا الركوع والسجود ؟

وكلها أسئلة معقولة . والإجابة عنها أنها أساليب محتفة في تعظيم الله ، والخشوع له . ولكن لماذا ؟ !

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال نتساءل أيضا : ولماذا يعلموننا عند المشي أن نبدأ بالرجل اليسرى .. ولماذا نمشي على اليمين .. ولماذا علامات المرور

ثلاث : أحمر وأصفر وأخضر.. ولماذا قواعد اللعب .. وقواعد كرة القدم والسلة وال طائرة واليد والماء .. لماذا ؟

إن أحد لا يسأل عن هذه القواعد التي اتفق عليها ، والترم بها كل الرياضيين . إنها قواعد عامة . وهى واحدة ليكون السلوك العام واحدا .

ولست فقيها في الدين ، ولا مجتهدا ، لأننى لا أستطيع وإنما فقط أحاول أن أحاور نفسى . وأختار ما يقنعنى وما يرضى . فكما أن شرط اللعب . أن نقل قواعدك كلها ، أو لا داعى لأن تلعب . من لك لا تستطيع أن تكون متفرحا تستمتع باللعب . إلا إذا عرفت قواعد اللعب . لعبة اللاعيب والمتفرجين واحدة . لا أحد يسأل لماذا ؟ وإنما اتفقتا جميعا عليها . لنستريح إلى نظام . والعقل بطبيعته منظم . بفتح الظاء وكسرهما أيضا .

وأنا لا أستطيع أن أفنى ، لأن معلوماتى الدينية واحد على مائة من معلوماتى الفلسفية ولا أستطيع أن أجتهد لأننى لم أدرس الدين واجتهاداته وتفسيراته وقرآته وأحاديثه وتفسيراتها . ولن أستطيع . فالعمر قصير . والدين طويل عريض عميق . وهذا الكلام لى ولغزيرى من الناس العاديين . ولذلك نحن نختار ما يريحنا ونعيش به عليه . وننطق ونختلف من أجله !

والأكل نه قواعد والشرب له أصول . والمناسبات والحفلات . والذى نلبسه في البحر ، والذى نلبسه في الفراش ، والذى نلبسه في الأفراح والمآتم ، وفي لقاء الناس الأكثر احتراماً - ومع ذلك نحن لا نسأل ولماذا ؟ وإنما نحن نمشى على الأصول التي توارثناها وارتعيناها . ويكون مثل الجميع لا شذوذ عن أحد من الناس . والدين . وكل نظام اجتماعى أخلاق مياسى رياضى عسكري يريد الصاعه والاحترام والسلام واخير لكل الناس ..

وكل عام يزور هرم الملك خوفو جماعة من الأوروبيين من «عباد قرص الشمس» أو أصحاب علامة «الصلب النوردى» ويدخلون قاعة دفن الملك خوفو.. ويقومون صلواتهم في دقائق. ولو رأها الإنسان لسخر منها. ولكنهم يؤدونها مع عقيق الاحترام. وينصرفون أكثر إيماناً- مثلاً : ما معنى أن يرتدوا ملابس على شكل هرم مقلوب عليه وردة وصلب ما معنى أن ترتفع الأيى وتهبط إلى حيث دفن خوفو ، ويقبلون للإله أختاتون ويكررون حكمة : أختاتون وصلبان وموسى وعيسى ثم اسم كريستيان روزن كرويتس أول من دعا لعبادة الشمس في العصر الحديث . ما هذه الحركات المضحكة ؟ ما هذه البلباهة .. إلى آخر الأسئلة التي فيها استكار واستخفاف بما يفعلون .

ولو قدر ضم أن يتفوا أمام مسجد من المساجد لأدهشهم الحركات والدعوات .. والخشوع .. واندھشوا لشكل القبلة التي يتجه إليها الناس وقالوا ما يعجبهم . ولكن الدهشة متبادلة ، والمعنى واحد . كل دين له قواعد وأصول ورموز ويتطلب الصاعه والإيمان . ولكن الإسلام يطالب المؤمنين بالتفكير في كل مخلوقات الله في الأرض وفي السماء وفي الإنسان نفسه ، فليست هذه الأشياء إلا صوراً مادية لقدرة الله . وعن طريق النظر إليها وفهمها ، يصبح الإنسان قادراً إلى حد ما على فهم شيء قليل جداً عن الله !

ولو قلت لكل حاج من بلد بعيد : وما هى أحجار الكعبة إنها ككل الأحجار . وما هى أحجار عرفات ؟ إنها مثل كل الأحجار - ولو قلت ذلك . فإن منهم من يصدق . ومنهم من لا يصدق . ولكن أى ضرر في أن يرى الناس أن هذه الأحجار قد اكتسبت قسامة التبريع . أى ضرر في أن يتسبح الناس لنواب السيدة زينب والحسين وقمر رسول الله .. لا ضرر ، ولكن الناس يحذون في ذلك

الراحة النفسية . فإذا استراح الناس بالفعل فأى ضرر على الناس أو على الدين .

إن أكثر الأمراض الآن تشفى نفسها . والذي يسميه الأطباء « بإحساسية » ليس إلا لإحساس أخص . وبذلك أصبح من الضروري لكن ضيق أن يكون على فهم بعلم النفس . وكان رجال الدين يقومون بهذا العلاج منذ ألاف السنين . وفي مصر الفرعونية . وفي الهند والصين كان رجال الدين أطباء وحكام العصر ..

بل إن الذى يتعب كثيرا من السفر إلى الأراضى المقدسة . يرغب أكثر أن يتلقى مكافأة معنوية على العذاب الذى شواه بالنزق في جسمه . هذا الثواب هو أن يقال له : إن الكعبة تشفى من المرض . والصفوف بقوى القلب . والسعى يشد العضلات . وعرفت يعلتك صانبا مغسولا من الخطايا كما ولدتك أمك . ومن انصعب أن يعود الإنسان كما ولدته أمه . كيف . وماضيه وتاريخه .. وما ترصب في نفسه . والناس الذين سيعود إليهم ويعمل معهم وضدهم وبهم .. ويعانى من جديد كل مصائب الدنيا - صعب جدا أن يعود الإنسان طفلا . ولكن يسعده أن ذنوبه وخطاياها قد حملت عنه .. وألقيت من فوق كتفيه ومن فوق ضميره . ويسعده ذلك . فأى ضرر على الإنسانية أن يشعر الإنسان بذلك . إنها سعادة ولا شك . وراحة وشفاء من كل داء . ومن داء التاريخ . فكل إنسان له تاريخ . وهذا التاريخ يوجبه في كل مكان من جسمه ونفسه ..

والقرآن الكريم يعلم تماما أن الإسلام دين من الأديان . ولكنه يفضلها . ويرى أيضا أن أديانا كثيرة لم تكن قادرة على التمييز . ولا حفظت كتبها تماما . ويعلم أن الحرافات قد دخلت . ولكن الله هو الذى أرسل هؤلاء

الرحال ذوى الاستعداد الخاص لتوحيد الناس إلى خير الناس .

يقول القرآن : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى . وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوفى موسى وعيسى وما أوفى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه .

« وإلى عاد أخاهم هودا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

« ولوطا إذ قال لقومه » .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون .. »

« وعن عيسى عليه السلام قال : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » .

« ألا إكراه في الدين »

وأنا أحاول أن أقوم لنفسى ما يرتضى وأحاول أن أنقله للناس الذين هم ليسوا من رحل الدين أو التفرقة في الدين . ولكن بعضهم حائر كما كنت حائرا

ويسألني هنا وفي الأراضى المقدسة كثيرون .

- ولماذا الآن !

- ولماذا لا أقول ما اعتديت إليه وهو قليل . في أى وقت ؟

- ما المعنى ؟

- إنى أحاول أن أجد معنى لما قرأت وما حاولت أن أفهم وأن أقول إنى أضعت سنوات طويلة . وضعت أيضا . وفجأة وهناك وجدت ما يريحنى . وجدت ما ينفضى وما يقتلعنى من أرض غريبة ، ويعيدنى إلى أرض أهلى وأثبت .. ولو عرفت ذلك من زمن طويل لكنت أحسن حالا .. ولكن كل شئ له أوان .. ربما كان هذا أوان هلى

- وسوف نكتب دائما كذلك !

- أختى . ولكن لا أستطيع ، هذا ما أقوله لنفسى ، لاعت تواضع ، ولكن عن أسف . فالذى أعرفه قليل . والذى أستطيع أن أحتد فيه قليل جدا أو معدوم جدا ولكن سوف أقول دائما أستطيع أن أفهم أكثر . لعل أضع أكثر ، وكله عمل ، وانعمل عبادة . مادام الخير العام هو الذى أقصده ، وكنت أقصده دائما ، فى كل ما أكتب ، أو هكنا أتصور هسى ..

وأسئلة أخرى من بلاد بعيدة فى رسائل القراء :

- وهل خلعت ملابسك ؟

- طبعاً .

- وهل صفت وسعت ولبت ؟

- طبعاً . إنى ذهبت من أجل ذلك . ذهبت وأنا أعرف ذلك ..

- هل ترى نفسك مؤمناً ؟

- أخيراً . هذا مؤكد .

- كيف تجد نفسك الآن ؟

سؤال صعب .. ولكن أستطيع أن أقول .. كنت صحراء قاحلة ، والآن فيها ماء ، كنت ليلاً بلا نهار . واليوم أشرق فى نفسى مالا أعرف أن أصفه

لك .. هل هو نور .. هل هو نار .. هل هو دفء .. هل هو احتراق .. هل خرجت من جسمى أطراف اعتمدت عليها فى سبرى وفى حركتى .. هل كانت عندى عينان بلا حلققان .. والآن لكل عين حدة .. هل كنت أقول كلاماً بغير منطق ، وأصبح لى منطق .. هل كنت عملى بلا عطاء ذهى .. والآن أصبح لها عطاء .. هل كان على بلا لى .. فأصبح لى إله .. أو الله - وهو الأصح .

- ما الذى تستطيع أن تفعله ؟

- لا أستطيع أن أفعل الكثير . إن قدراتى محدودة . ومعلوماتى محدودة وما أوتيته من العلم قليل . وكل إنسان كذلك . وأكثر الناس علماً أكثرهم تواضعاً . وقد تعلمت من الفيلسوف الألمانى كانت : أن هناك شيئين يبهزان الإنسان ويغرمانه بالجهل والجلال : النجوم فى السماء وصوت الضمير فى أعماق .. وهما اسمان لمعنى واحد هو : الله .

وتعلمت منه أيضا : أن أحنى رأسى أكثر ، لأكون أكثر احتراماً ، وأن أغمض عيني أكثر ، لأرى أكثر ، وأن أمد أذنى أكثر ، لاسمع أكثر ، فإني معرفة الله لا تكون إلا بالصمت والتأمل ونحن كنا آذاناً وعيون وأفواه .. ونسينا أن لنا عقولاً وقلوباً .. فتحن إذا تكلمنا لم نسمع . وإذا سمعنا ، لا نفهم . وإذا فهمنا ذهب بنا الغرور إلى أننا قد عرفنا كل شئ . فإذا شعرنا بأننا نعرف كل شئ : لم يصعب علينا أن ندعى الألوهية .. فإذا أدعينا ذلك . فقد أصبحنا حيوانات مفترسة . تنكرنا للإنسانية الإنسان . وعقل الإنسان ووجدان الإنسان .. وهما فقط لآله ولا داعى له .. فليست الحيوانات آله !

.. ولن يتغير رأيك بعد ذلك ؟

.. ليس لي رأى .. وليس الذى أقويه أو أحاول ذلك .. رأيا .. ولكها حقيقة كشفتها وكشفتى .. وأحاول أن أعبر عنها فقط : فأنا لم أخلق .. حل .. وإنما أنا أستعملها فقط أو أمشي بها فقط .. والله حقيقة عضوية .. كوية رياضية مفصلة طبية فنية .. دينية أخلاقية .. وأنا لم أهتد إليه .. ولكنه هو الذى هدانى إليه .. وأنا أحاول أن أصف هذه الخطوة .. والذى عرفته ليس مرحلة بعدها أعود إلى مرحلة أخرى .. ولكنها نهاية .. وسوف أقضى ما تبقى من عمري أحاول أن أجد طرقا أخرى إليه .. فهو فى كل شيء وكل فكر وكل عصر وهو الكل .. فالكل فيه وبه وعليه وله .. هو كل هذا الكل

.. ماذا تقول فبمن لايزاد بعدد الأوثان والحيوان ؟

.. أرى أن هذا طبيعى .. فهو لم يرتفع إلى مستوى الإدراك الصحيح .. فهو بدائى .. والذى يرى الشمس مصدر الحياة أو هى الحياة معذور .. والذى يرى أن الماء هو مصدر الحياة .. ويعبد النيل .. معذور أيضا .. وانطلق الذى يرى أن والده هو أعظم رجل فى العالم معذور .. وإنما رأى بعد ذلك أن العسكرى هو أقوى من والده .. وأن المأمير أقوى من العسكرى .. وأن الطبيب أعظم الجميع .. هو طفل صغير ..

وأنا أذكر أننى راقت جماعة من الأشقاء العرب جاءوا من بعيد فى الأرض وفى التاريخ وسألته عن الشيء الذى أعجبهم فى القاهرة .. حل هو النيل .. حل هو البلاجات .. أو العمارات .. أو الفتيات أو السيارات .. ولكنهم لم يعجبوا بشيء من ذلك .. وإنما أعجبهم شيء واحد لا يندون له نفسيا .. ويرون أنه أكبر دليل على وجود الله .. وسألت ما هو ؟ قالوا :

الأسانسير .. لأنه يطلع وينزل بلا صوت ولا ناز ولا دخان !

مع أنهم جاءوا إلى القاهرة فى طائرة نفثة .. لها صوت وصراخ .. ولذلك فإن الأسانسير أفضل منها .. مع أن الأسانسير آلة بسيطة جدا إذا قورن بالطائرة الشديدة التعقيد !

واعتقد أنا أيضا فى مرحلة الإعجاب الشديد بالأسانسير .. ولم نصل بعد فى علمنا وفهمنا إلى مراحل الطائرة أو الصاروخ أو سفن الفضاء .. أو مدن الفضاء أو تويسات الفضاء ..

واقترح كثير من الأصدقاء أن أكتب فى موضوعات شتى .. وهو حسن ظن لاستحققه .. ولن أفعل ذلك الآن ، أعرب حدودى العقلية والعقلية ولكن إذا تيسر لى ذلك فسوف أفعل إن شاء الله قريبا ..

وعد ..

ببببب لم أفل كل ما أريد .. وبعدت بعض .. أستطيع .. ولم أشأ أن أحد التقارئ فى دوايمى العقنية والوجدانية .. وإنما حاولت فقط أن أصور عداوى عقل وحبرى البنية .. وكيف أبى حرجت منها إلى شتى .. شتى طوبى غريص لا أعرف فيه إلا القيد من الناس .. والتقاليد من الأشياء وأمنى بخر لا أعرف كيف أصبح فيه .. وكما أبعاد عن الشاطئ .. ومتى أعود إليه .. ومتى أخاف منه .. ومتى أنفذ نفسى .. أو أصرخ فى أحد أن يفعل ذلك .. وإنما أعلم أنه لا أحد يتظر أحدا .. ولا أحد يرى أحدا .. إن كل إنسان مشغول بنفسه .. بهيمه .. ولذلك فلا بأس لا يسمعون الناس .. وإنما سمعهم فلكى يستفيدوا منهم .. فالحياة فائدة متبادلة .. وصناعة تروح ونجى .. وعملة تريد وتنفق .. ويد تأخذها ويد تأخذك .. وعين تراك وعين تتجاهلك .. هذه

حياة كل الناس . والناس معذورون . فالحياة صعبة وقصيرة .

ولكني صليت من الله الكثير . فأعطاني القليل الذي أستحقه . وكنت أريده أكثر . وسوف أطلب أكثر وأخذ أكثر . فأنه قد وعد بذلك . ولكن القليل شفاى : راحة نفس . ووضوح رؤية . وصفاء عقل . وانسراح صدر ، وسهولة في التعبير عما في نفسي

وليس هنا قليلا . فالحمد لله .

أن يكون أبعد وأعلى ..

ولذلك ذهب إلى « غار حراء » وهو في العشرين من عمره .

بل إنه كان بعيداً عن الناس وأسمي منهم وهو ما يزال طفلاً .. غريب هذا الطفل وهذا الشاب وهذا الرجل .. لطيف . أمين . صادق ، إذا ذهب الشبان للهو لا يذهب . وإذا حضر اللهو غلبه النوم .. إنه بعيد عنهم حتى لو اقتربوا منه .. غائب عنهم حتى لو التفتوا حوله .. إن الذي يدور في داخله شيء آخر مختلف .. إنه هو نفسه لا يعرف . ولكنه أخلص لطبعه وطبيعته وسار وصعد يرى ويسمع ويتأمل .

في العشرين من عمره صعد جبلاً على مدى ثلاثة كيلو مترات من مكة .. الجبل اسمه الآن (جبل النور) أو جبل حراء .. تسلفه عشر سنوات في أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . وفي أيام الجمعة والست والأحد يتزل يعيش بين أهله غريباً عن الناس ..

وبعد ستة واحدة من ذهابه إلى « غار حراء » تزوج خديجة . وكان في الخامسة والعشرين من عمره . يصعد الجبل ومعه القليل من الشعر ولبن الماعز .. يقضي النهار . ويميل في صمت فلم يكن وحده . وإنما كان مع كل معنى الكون

سهر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

فليس أعظم من أن يكون الإنسان فوق ليرى كل شيء صغيراً .. الناس وحياة
الناس وهذه الدنيا .. ويرى الله كثيراً في حق الناس وهذا الكعب .. في السماء
والأرض .. وفي العقل وفي النفس .. كل شيء ذاهب .. إلا الله باق .. كل شيء
كثير إلا الله وحده .. كل شيء صغير إلا الله جليل ..

ما هذا الذي يفعله الناس هناك .. وحول الكعبة ؟

فهو من الغار الذي أقام فيه عند قة الجبل يرى الكعبة .. حوفاً أمام وكلاهما
ويصومون وعمرورون ونساء كلهم يتزاحمون .. وبسرعة يفتفون وترتفع السيوف وتبيل
العماء ونحوه الذباب ..

هذه هي مكة .. وحيت مكة لأنها جافة من الماء .. ويقال : مثل الشيء أي
امتصه .. فهي تمتص الذنوب .. ولكن ذنوب هؤلاء النوليين عندما تمتصها مكة
تجدد من جديد ..

هذا المعبود اسمه « هبل » إنه تمثال من حجر العتيق لمذراع واحدة .. ونحوه
القبائل تضع للتمثال ذراعاً من ذهب .. وأمام « هبل » يستغرق الناس في لعبة
« الزهر » .. وعلى كل واحدة من الزهر مكتوبة كلمة .. لا .. أو نعم .. أم
كلمات : لا .. لك .. للمعبود « هبل » .. والناس يلتمسون حول التمثال يرمون الزهر
أمامه .. وينهبون الجمال .. ويأكلون ويشربون .. ويقدمون القرابين لهذا الحجر
الذي صممه بشر .. ونعمه بشر .. ويدعو ويدعو عليه .. ويصق عليه نثر
أيضاً .. ولكنهم يعبدونه ويستحلونه ويصدقونه ..

وهناك حجر اسمه « اللات » .. يعبدونه ..

وهناك ثلاث نخلات اسمها : العزى يعبدونها ويلقون عندها همومهم وكروبهم

وينهبون أغنامهم وإبلهم .. ويقولون إن النخلات الثلاث تكلمهم وتكشف
أسرارهم وتفضحهم بعضهم أمام بعض .. فهم جاءوا من أقصى الصحاري
ليتمروا أكثر أمام الآلهة .. وهكذا تتحكم فيهم الأحجار وعادات قلبية أكثر مودة
من الأحجار .. والكثير يدورون خوفاً ويبعون ويأكلون ويشربون ويتسولون هم
وحبائرتهم .. ويلقون على جدرانها ثرواتهم وفي داخلها يضعون عقودهم
ومواثيقهم .. ولكن لا قناسة للمكان لأنه لا قناسة لأحد .. فلا أحد إلا الأوثان
ولا الأحجار وإلا السيوف والدم والفجر والبطش والحوار .. وحروب
القبائل .. وإلا ثروات الأغنياء وجسمهم وذئب الفقراء وهوانهم ..

ومن هناك فوق ما الذي يراه انرسون محمد من غار حراء .. يرى من بعيد
حجر الصفا .. وحجر المروة .. والطريق بينهما من تراب وذباب .. وهناك تمثال
من حجر يعبد الناس .. ويمسحون أيديهم ووجوههم .. وأطرافهم الموحجة ..
وتشال آخر تمسح عنده النساء بصوتين وظهورهن وصدرهن ويتمنين شيئاً من
الذرية أو من السعادة الزوجية ..

وليس هناك التمثال لأحد من الناس الطيبين .. إنها لائمين من الفاسقين ..

في ذلك الوقت كان كل شيء هنا حافاً كل شيء في مكة وحول الكعبة .. الشمس
محروقة والناس يهربون منها إلى الحيام وإلى النجلى وإلى النوم .. وجاء الممل فزادت
الحرارة واختفى الناس .. وتسلل رجل وامرأة إلى داخل الكعبة .. وتجاوزا والتصقفا
حتى غموا إلى تمثالين من حجر .. وأصبحت فضيحتها عملاً مياً .. تمثالين
بارزين .. ذليلاً مسموماً قطعاً .. ورجلها الناس ونحوها .. وتكاثر الرجال حول
الكعبة .. وتكاثر الأيام ومضت بعدد الرمال حول الكعبة .. ونسى الناس من هم
صاحبها التمثالين .. وغل الناس أهباً من الآفة .. وانتقل تمثال الرجل واسمه :

أصاف .. والمرأة اسمها : ثالثة . أحدهما عند الصفا . والآخر عند الدوة . وعندهما
اسم

ومن جبل حراء هنا بنيت الكعبة . ويقال إن (ثيث) بن آدم عليه السلام
أخذ أحجار هذا المكان المقدس من جبال مينا ولبنان وحراء . ولما جاء إبراهيم
عنه السلام وابنه إسماعيل أقاما الكعبة من أحجار جبل حراء .

وعندما كان النبي عليه السلام شاباً كان يحمل الأحجار المقطوعة من جبل
حراء على عنقه وعلى رأسه .. ولما اختلف القبائل أيها يضع الحجر الأسود في مكانه
احتكوا إلى رسول الله .. ووضع الحجر الأسود في ثوبه .. وأمسكت القبائل
ثوبه كل من ناحية .. وامتدت يده هو ووضعته في مكانه . واستراحت
القبائل إلى أنها شاركت في وضعه .. فلا فضل لقبلية على أخرى . وكان وضع
الحجر إشارة إلى أن الرسول سوف يضع حجراً وراء حجر لذين كرم لقريش وكل
القبائل الأخرى والشعوب .

وهناك ومن غار حراء الذي يتسع لحلمة جالسين معاً ، كان الرسول يرى كل
هذا الكفر والتسوق ولا يطيقه ولكنه لا يعرف ما الذي يمكنه أن يفعله .. أو
ما الذي يستطيعه .. إنه واحد . وهم كثيرون .. إنه فقير وهم أغنياء .. إنه يتيم ..
إنه نظيف .. إنه أمين .. إنه مختلف .. إنه لا يستطيع أن يشارك .. أن يمد يده ..
أن يقض عيماً .. إنه فوق .. وأنه بعيد .. وأنه في أسفل السافلين .

ولما تزوج السيدة خديجة . كانت ترى أن شيئاً عجيباً يضاف كل يوم إلى هذا
الزوج الصالح .. أول ما رأت .. أنه إذا نام وقام وروى لها حلماً يكون الحلم
صادقاً . فكل ما يراه يقع . فهو كحلم . وإنما هي رؤية صادقة . به يرى
ما سوف يحدث .. وليس هذا بالقليل . إن الإنسان يحدث له ذلك مرة كل

سنة .. أو مرة في العمر كله .. وعندما يكون في حالة توازن للجسم والنفس أي إذا
ما كان في حالة سواء .. صفاء .. شفافية .

إن علماء النفس يجدون في الرؤية الصادقة دليلاً على أن هناك قدرات
خارقة عند بعض الناس بعض الوقت .. وهذا معناه أن الإنسان يستطيع أن يرى
أبعد مما يرى الناس . ولما إذا أثبت ذلك . فأذاك في هذا المكان وفي هذه
المحطة . وإنما تعدت عن عشرة آلاف متر مربع لا شيء . لأن مدني على
الرؤية في المكان محدودة .. وإذا أنت جئت إلى نفس المكان الذي تقف فيه فأنت
لا أدراك إذا لم تكن موحداً .. فشروط الرؤية أن تكون معاً على مسافة واحدة في
المكان والزمان .. ولكن الذي يرى ما يحدث على مدى أنوف الأميال .. وعلى مدى
أنوف الدقائق أو الساعات هو العجيب الغريب . إنه يرى ما سوف يحىء في المكان
والزمان ويوضح كل يوم .

وبعد ذلك كان الرسول عليه السلام يتأمل كثيراً .. يصمت . ويطيل النظر .
ويستعمل تماماً كأنه يستمع . أو أحد غيره . أو يستمع إلى أصوات لا يسمعها
الناس .. فهو بعيد النظر وبعيد السمع أيضاً .

وكان الرسول عليه السلام عندما اختار غار حراء اختار العزلة العالية والوحدة
الرفيعة . والسمة الشامخ . وأن يكون في معة الكون كله . فواهب الكون وحكمة
أحياء وأصل الوجود . هناك بعيداً عن الناس والأشياء

ونجاة جاءت الأحداث الجليّة . لقد رأى وسمع . رأى وسمع من يقول له :
اقرأ .. وهو لا يعرف القراءة ولا يعرف ماذا يقرأ .. فالتفت ويقول له : اقرأ .
مرة ثانية وثالثة .. والرسول يقول . ما أنا بقارئ .. فيقول له : اقرأ وربك
الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ..

وكان الصوت ملياً عميقاً .. هزه من رأسه حتى أصابع قنبيه .. تفجرت فيه الحرارة والحرق .. والبرودة والخوف والفرق .. شيء عجيب غريب .. ما رآه قبل ذلك .. ولا انتظره .. ولا عرفه ولا سمع به .. هبط الرسول من جبل حراء .. إلى زوجته يطلب إليها أن تحضنه أن تحسبه .. أن تحبه .. أن تعبه على ما هو فيه .. وحى تعرف أنه صادق .. وأنه أمين .. وأن شيئاً لا تدري هي أيضاً سوف يحدث له .. وحدث له .. وأخذته إلى راهب قرأ في المسيحية واليهودية .. ولما روت له ما حدث .. أكد خائنه نبي .. وأنه سوف يكون نبي هذه الأمة .. فاندبى جرى له .. وجرى عليه .. قد حدث لموسى .. وحدث للنبيين من بعد موسى ..

والقرآن يقول : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .

هذا هو الوحي

يتزل صورة وصونا .. يلاكل شيء حوله .. إن قوة هائلة طوها السموات والأرض تدخل في جسمه الصغير .. تفيض فيه .. تندفق بغزارة وحرارة .. إن تباركته عالياً يلعبه فيزده بعنف .. وكان الرسول لا يقوى عليه .. كان يصاب بما يشبه الحمى .. وكان هذا الوحي يتزل عليه جالساً ومائتاً وراكباً ..

فإذا نزل عليه وهو فوق ناقته كانت الناقة تترك على الأرض .. ونلهث كأن الذي يجلس عليها جبل .. فإذا فرغ الوحي من تبليغ الرسالة .. عادت الناقة ترفع رأسها .. كما يعود الرسول إلى حالته العادية ..

وسه يتحرك له .. إلى سبي عبيث دولاً غيباً

والرسول يقول : شيتي دعوت وأحياتة .. أي سورة هود وسور أخرى كثيرة .. فقد كان يروى عليه سورة هود ..

وخل الرسول بتلقى الوحي .. ويدعو إلى دينه اخذيد سرا .. وجاءه الوحي

يدعوه إلى أن يجاهر بالدعوة .. يقول الله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .. وحاهر الرسول الدعوة .. وحاهر المشركين بالأيام له ولأنساعه من المسلمين .. ولكنه مضى يدعو في كل مكان .. واستمر الناس يتربصون به في كل مكان .. وصارت لأحبار واحشاد الخيوات والنعاء ينهون عليه أين ذهب وهو صابر على دعوته .. إنه يدعو الناس إلى ترك عبادة الأوثان .. إلى السلامة .. إلى النظافة والصفاء .. والرحمة والتواضع .. وإلى أن متاع الدنيا قليل .. وإلى أن الله أبقى من كل ما في أيديهم وفي نفوسهم ..

وازدادت قريش - قبلته - قوة عليه وعلى المؤمنين به من الأطفال والشبان والنساء والعبيد وقديرا دين الضعفاء - ولكنه أفياء دينهم ورجم

عشر سنوات يدعو فيها الرسول علناً في مكة .. وحول مكة .. والغلاب والموان والاحتقار والتهديد والوعيد والإغراء بالمال والسلطة .. يرفضها الرسول والمؤمنون ..

والرسول يدعو الله قتلاً . يا مقلب القلوب شنئ على إيمانك دينك .

ويوم ذهب الرسول إلى الطائف على مدى سنتين كيوم من من مكة يدعو ويشرح وينذر .. طردوه .. ووقفوا صفين .. ثم جنسوا صفين وكل واحد في يده قضة حجر .. سار الرسول بين الصفين .. وكلما وضع قدمها فوقها بالحجارة .. حتى دميت قدامه .. ومن أعراقه قال : « اللهم إني أشكو ضعف قوتي .. وقلة حيلتي وهواني على الناس » .

ذلك الدعاء الجميل الصبور

ونزل الوحي يقبل إلى الرسول أن يهاجر .. وكان الرسول قد رأى في نومه أنه سوف يهاجر إلى مدينة فيها نخل .. وفي المدينة ذاق ضمم التمر لأول مرة في حياته !

وهاجر المسلمون إلى الجنوب وهاجر منهم آخرون إلى المدينة ..

وكان الرسول يضر إلى مكة حزينا ويقول : « والله إنك لأحب البلاد إلى نفسي . ولولا أن أهلك أخرجنى ما خرجت » .

وذهب الرسول وأبو بكر إلى غار ثور .. وأقاما فيه ثلاث ليل .. وكاد المشركون يمسكون بهما . وفرغ أبو بكر . وقل له الرسول . ما ظلك باثنين الله ثالثهما .

ونزل القرآن يقول : « إلا تصروه فقد نصره الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تخن إن الله معنا . فنزل الله سكينة عليه . وأيده بخوده لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا . » وثمة عرير حكيم .

وبعد ثمانية أيام أو عشرة وصل الرسول إلى مشارف المدينة المنورة . واستقبله أقاربه من بني النجار يتفنون .

صع	السمر	عيب	من	تعبات	الشداع
وح	الشكر	عيبا	ما	دعا	له
يها	المنعوت	فبيد	حت	الأمير	الظن
جئت	شرفت	المدينة	مرحبيا	يا	حير
					داغ
					طلع
					المد
					علينا

«ثاني اثنين إذ هما في الغار»

ومن الذي لا يحاول أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه الرسول العظيم .. في هذا الطريق إلى غار حراء سار الرسول أكثر من ألفي يوم .. طالعا تازلا .. متفكرا متأملا متألما - خفيفا بصفاء روحه وثقيلاً بهجوم قومه وكل الناس .

الناس يسمونه «جبل النور» منه وفيه ظهر جبريل .. ومنه خرج نور يهدي الناس إلى سواء السبيل .. إلى كلمة سواء .. إلى ما هو أنفع وأرفع . الفطريق صعب .. وأنا لم أستعد لهذا الصعود .. ولا خبرة لي به . وكما عرضت هذه الفكرة لم يفلح أحد في أن يثقي استخفافه - أو دهشته .. أما الدهشة فلأنه طويل صاعد صعب .. ولأنه من الصعب على من اقترب من الحتمين ويزيد وزنه على التنازل أن يصعد كل هذه الصخور إلى ارتفاع شاهق .. ووجدت الناس على حق .. ولكن أريد أن أرى . أن أمشي . أن ألس . أن أستاذكر .. أن أسترجع . أن أكون على مقربة من مكان تغيرت فيه الدنيا .. هناك متنفس رجل عظيم - هناك .. فوقه . كان الرسول وحده مع الله وحده .. كانت السماء تعد جسمه لأن يكون جهاز استقبال فريدا ... يستقبل كلمة الله التي هي السماء والأرض وما بينهما .. إن جسم الرسول لا بد أن يعد إعداداً خاصاً .. لا بد أن يروض على الصفاء أكثر . والبقاء أشد . والإحساس أرفع .. لا بد أن يتعرض للنضوء الباهر ليعد ترتيب خلاياه وذرات عقله وقلبه .. وفي هذا الغار . في هذه

الفرقة الصخرية وعلى هذا الارتفاع وفي مواجهة نور السماء . أعيد تكوين
الرسول ليقدر على أن يتحمل الضوء الإلهي والصوت المنيء والكلام المتزل .

ووقفت عند سفح الجبل من الناحية الأخرى .. لا توجد أية معالم لأحد قد
صعد .. ولكن من المؤكد أن كثيرين أشد إيماناً وأخف وزناً وأكثر حيوية قد
صعدوا كالغزلان .. ولكن ما الذي صعدوه .. الصخور متقاربة .. مثل أنياب
من الجرائيت مفتوحة .. لا أكاد أتقدم خطوة حتى أقع بين نابين .. قدمي على
ناب ويدي على ناب .. وأمامي وورائي أنياب .. والصخور نظيفة يمسحها
أخواء أولاً بأول .. وقد نصحتني كثيرون أن أخضو إلى الأمام وألا أنظر ورائي ..
فالتريق أمامي طويل صاعد عصى .. لا يكاد ينحني بئنة ، حتى ينحني إلى
اليسار ويمددة وشدة .. وفي أول « الطريق » - وليس هناك طريق - أشجار وعلى
الأشجار تعلقت لفافات من القماش .. فالتاس يلفون القماش حول غصن صغير
ويطلبون من الله ، بحق هذا المكان الكريم ، أن يخل عقدهم .. كثير من العقد
على هذه الأشجار .. وقد رأيت مثل هذه « البدع » في أماكن كثيرة .. رأيتها
عند « حائط المبكى » ، فاليهود يكتبون شكواهم ويلفونها في ورقة ، ثم يضعون
انورقة بين الأحجار .

وفي أضربة لأولياء في مصر يلق الناس خطاهم إلى الأولياء . تدماً كما
يفعلون ذلك مع الحكام : وكأن الأولياء أحياء قادرين على أن ينقوا الناس أو
يضرهم .. ولكن الناس يستريحون إلى ذلك .. وفي اليابان وجدت الناس
يوزون المكناس التي في مداخل المعابد .. أملاً في أن تقوم الآفة بكس هوم
الناس وتعاينهم .. ورأيت الناس عند تمثال بوذا يلقون عليه المورود بعد أن
يقطعوا من كل وردة ورقة .. ثم يقولون معها كلمة دعاء .. ورأيت الناس في

الحمد يلقون بملابسهم القديمة في « الأهرار المقدسة » لص الأهرار أن تأخذ أمراضهم
وشقاءهم إلى غير رجعة ..

وفي الطريق إلى الغار وجدت الناس يكتبون أسماءهم على الصخور ..
ولكن الطريق ليست له معالم . وكنت أنظر إلى القعة التي لا أراها بوضوح ..
وأمد يدي إلى الصخور .. وأرفع ساق .. وأتسلق ولا أعرف ما بعد ذلك ..
وأقول : كان الرسول إنساناً آخر .. وكان شايًا .. وكانت عنده قضية كبرى
وتتظنره لداعات السماء

وطال الطريق . وتوقفت ألت .. وأحسنت أنني ارتكبت مجموعة من
الأخطاء . فلم أرتد حذاء يملك قلبي فلا تترقى .. وكنت أرتدى جيباً .. وكنت
أذيب عرقاً . والجلباب لا يمتص العرق .. وإنما يتركني وحدي في مهب الهواء
البرد .. ولو كنت أرتدى قميصاً وسطولاً لالتصق قميصي بقميص عرقى ويتص
حوى من لائحة هواء لصدري وحلتي . ولم آت مصفاً أنوكاً عليها . ولم أنعم
تسلق الجبل .. بل إنني لا أقوم بأية رياضة في مصر . ورياضتي الوحيدة هي
هبوط سلال « أخبار اليوم » بأدوارها التسعة ..

وأذكر أنني غشيت مع الصديق أحمد فراج على النيل نصف ساعة . بعدها
وحنا تهئ أنفسنا بفاخرة النشاط العظيم الذي سوف ينظم الدورة الدموية .
وبريل نسحم ويشد اللحى . ويشد عقل وبقوى القلب . وكانت مرة
واحدة .. وكان ذلك رقماً قياسياً لنشاطنا في عام كامل . وأد لأن أصدق
الجبل .. وأحاول أن أقرأ الأسماء على الصخور - ولم تكن محاولة القراءة إلا حيلة
لكي أتوقف بعض الوقت لأشتم نفسي . ولتبرد حرارة جسمي - ولكني في
هس الوقت لا أستطيع أن أف صويلاً فأنا أحتسب أن تغرب الشمس فلا أعرف

كيف أهدأ لحي . وهذه غصّة كبرى أبى صعدت الحبل قبل العروب فنزل .

وتكثفت الصخور كلها مرة واحدة كأنها لا تريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك . فالصخور كتلة واحدة . كأنها حائط . كأنها سقف . سدميع . وفي لحظة ضعف فكرت أن أكتفي بهذا القدر على أن أعود غداً . ولكن هذه الفكرة ألقيتها فوق هذه الصخور بسرعة ورأيها وقد تبددت إلى ذرات . وكل ذرة منها انقلبت عفريناً . أو إبليس الذي كان يريد أن يصدق عن شيء رائع يتمناه كل أحد ! .

وبعد دقائق طويلة . واستراحة بعد أخرى . وجدت مكاناً على شكل حوض ماء . الحوض جاف . كانت إذا تزلت فيه الأمطار بقيت بعض الوقت . ولابد أن الماء يكون بارداً على هذا الارتفاع . ولابد أن الناس كانوا يشربون منه . ونكسني لم أجد ماء . وإنما بقايا الماء على الجدران . ووجدت سلماً صغيراً ينزل إلى عمق الحوض الذي ينبغ المترس . أما ضوؤه فتران وعرضه متر ونصف متر .

وبعد ذلك عاودت انصعود . الأحجار ما تزال حادة بارزة . إنها أنياب أو أضراس حيوان متوحش كلفته السماء بأن يحرس صاحب الغار . بعيداً حتى عن الهواء إذا فكر أن يتسلل إلى هدوئه الكريم .

وعند قمة جبل حراء . هذا هو الغار . أو الجانب الخلفي من الغار . له فتحة على شكل شفتين متجمدتين من الحجر الأحمر الجرايت . كأن الغار أراد أن يقول شيئاً . ولكن محنة نفثت صرخاته إلى شفاة حامدة فسكت منذ ذلك الوقت . وإنما الذي نطق بالحق هو الرسول الكريم .

والغار له فتحة من الناحية الأخرى في مواجهة مكة . في مواجهة الكعبة .

وكان الرسول عليه السلام يقف في هذا المكان . ثم يتزل بساقيه ويتساند على هذه الصخرة بالذات . ثم يدخل الغار وقد حنى رأسه قليلاً . ثم يضع ضامه . من لبن المعز . وبعض الحنظل . ثم يجلس . ثم يستند ظهره إلى داخل الغار ويتوجه إلى السماء . فإذا جاء الليل . دخل الرسول إلى عمق الغار وأسد ظهره وراح يفكر في أمر الناس . ما كان منهم وما سوف يكون . ولكنه لا يدري ما الذي يدفعه إلى هذا المكان . إنه مدفوع إلى هنا

وعلى الغار كانت قبة . انهلمت . ولم يبق من هذه القبة البيضاء إلا جدران صغيرة من طين الجير الأبيض . فتراها الإنسان من مكة . ومن عرفات .

أما مدخل الغار فسدود بالأحجار أيضاً فقد كان من عادة الناس أن يجثوا إلى هذا المكان . وهي رحلة شاقة . وبعضهم كان يسقط ميت . وبعضهم خصمه انصخور . وبعض الناس كان يقيم الليالي الطويلة في الغار . والغار ضيق . والناس يتراحمون . وبعضهم يتعبد . ولم يأمر الرسول أحداً بأن يفعل ذلك

ونكن التعبد في هذا المكان بدعة . ومشقة . ولذلك صدت فتحة الغار حتى لا يذهب أحد إليه

* * *

قال لي الأمير فوار أمير مكة المكرمة إنه عندما كان في السيرة مع الرئيس السادات والقذافي قال للرئيس السادات . إن بعض الناس يذهب إلى جبل النور . ويتعبد كثيراً حتى يصل إلى غار حراء . ويبيت فيه . مع أن هذا ليس من الدين في شيء .

وقال له الأمير فواز : إن الأخ أبليس متصور قد جاء أكثر من مرة حاجا ومعتصراً ليذهب إلى عار حراء .. ليكل كتاباً له .. وأخشى أن يفعل نفس الشيء ..

وقال الأمير فواز : فإذا ذهب وأقام في الغار ؟

قال الرئيس انسادات : إذا فعل ذلك ضعه في السجن !

ووجدت الغار مسدوداً بالطوب الأحمر .. حتى لا أدخل السجن !

• • •

ولأحق شعوري بالفزع والرجفة عندما وقفت فوق الغار .. مع أن الغار أحجاره ككل الأحجار .. أحجار عادية .. ولكن المعنى .. المناسبة .. التاريخ .. شيء يخيف ويهز ولا يحد الإنسان ما يقوله .. فالذي يمكن أن يقوله أحد بعد الذي قد صاحبه العز .. الذي ينكر أن يقوله عنه وعن لدى قال .. إن صاحب الغار قد كان له رأى في كل شيء .. وله وقفة عند كل قضية

ومن الصعب أن يكون لك رأى إلى جانب رأيه أو حتى وراء رأيه أو احتداد في الذي قاله .. صعب جداً

إنني قرأت ما كتبه الدكتور هيكمل عن محمد

وما كتبه العقاد ..

وما كتبه طه حسين ..

كل واحد حاول أن يجد طريقاً مريحاً إلى المعنى الذي يريد .. الدكتور هيكمل حاول أن يعرض قضيته وأن ينافع عنها .. والعقاد حاول أن يعرض

نفسه وعقليته وأن يحلوها وأن يقنع بها .. وطه حسين حاول أن يجد قصة .. حكاية .. يسهل عليه روايتها ، ويمتدح الناس إذا تحدث عنها ..

ويبقى الرجل كبيراً عظيماً لا يعرف من أين نأى إليه .. الطرق إليه كثيرة جداً .. ومتشعبة ومتداخلة .. ومضية حتى لا تقدر أن تطلق عينيك .. ومضى قد له لؤلؤ وماس وأحجار أخرى كريمة .. ولا تعرف كيف تصنع منها عقداً أو قرطاً أو خاتماً .. ولا تستطيع أن تدع شيئاً .. ولا تقوى على أن تأخذ كل شيء .. إنه شخصية باهرة .. كيف استطاع كل ذلك وحده .. كيف واجه الظلام بال نور ، والضلال بالهدى ، والقوة بالحق ، والعذاب بالرحمة . والهمان بالإيمان ..

كيف هاجر من مكة .. كيف خرج منها ليعود ذلك فاعثاً لما عظمأ أصنامها . منتظماً فوضاها . ثم ليعود مرة أخرى إلى المدينة يلقي دبه ويلفن فيها .. ويكون له المكان الطاهر : قبره ومسجده وتكون قبور زوجته وصحابه وأنصاره .

لقد دخلت قلب الكعبة عشر مرات

أربع مرات وراء الملك فيصل ..

وأربع مرات وحدي ..

ومرة وراء الرئيس جعفر نمري ..

ومرت وراء الرئيس السادات ..

وعمرتي الراحة وأحسنت أن شرايبي من النيون الهادئ .. بلا حرارة

ولا صوت .. وهي في حالة بين الحياة وموت .. فلا أناحي أشعر نفسي .

ولأنا ميت بلا جسم .. ولكني فوق جسمي نحت .. ونخط رفيع يربطني

بالاثنتين .. وعندما خرجت من الكعبة أخذت أشعر يسمى قطعة قطعة حتى أصبحت قبلاً على وجناتي وعلى فكرى .. وأعيدت لى حياتى العادية ..
وفى داخل الكعبة كل شىء غمسود فى ماء الورد .. ماء زمزم مع ماء الورد .. الأرض غسلوها ، والجدران بللوها .. وفى ركن داخل الكعبة ستار .
وتصلحك بعض حراس الكعبة أن تخفى وراء الستار وأن تطلب من الله أن يترب عليك .. فهو ركن التوبة .. ودعوت الله .. وفى الظلام اصطلمت بالذى يركع والذى يسجد والذى يبكى والذى يبلى ملابسه فى ماء زمزم .

ولكن إحساسى فى مسجد الرسول شىء آخر .. من نوع آخر .. فهنا كان بقيم الرسول .. وهما كانت زوجاته .. وفى بيت عائشة وعلى صدرها مات .. وفى ملابسه غسلوه وبها دفنوه .. وعند كفى الرسول دفن أبو بكر .. وعند قلمي الرسول دفن عمر .. وكان المسجد النبوى صغيراً - ٢٠ متراً فى ٢٠ متراً - فقد كن عدد سكان مدينة قراها تسع ثلاثة آلاف سمة بعضهم من اليهود . وحصف المائى من الوثنيين ثم أصبحوا مسلمين بعد ذلك .. والناس لا يتفوقون حول قبر الرسول .. كما يفعلون حول الكعبة .

ومن هنا كان يخرج من بيته . وهنا كان يصلى . وهنا كان يتحدث إلى الناس . وهنا خرج مريضاً . وهنا مرض . ولقى ربه .

لا بد أن الرسول كان شخصية ساحرة . فالذى يقرأ ما قال ، والذى يقرأ ما فعله الناس عندما سمعوا ما قال .. ولم يكن له مال ولا سيف . وإنما فقط ما يقول . وقدرته على إقناع الناس . بصدق شخصيته وأمانته والقُدوة النادرة التى كان عليها . ثم إنه كان شراً بنسبهم وينهم . ويعصب ويغرض ويتوت والقرآن يقول : « نك ميت وإنهم ميتون .. » ويقول : وما محمد إلا رسول قد

خلت من قبله الرسل . أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم .

ومات الرسول - عليه السلام - فى يوم الاثنين وهو اليوم الذى ولد فيه . والذى هاجر فيه . وبلغ المدينة فيه . وفيه نزل الوحي . وفيه خرج من غار ثور . وفى هذا اليوم رفع الحجر الأسود ..

إنه إنسان تعرفه وتحبه وتعجب به وتستريح به وتبكي عليه وتفرح به .. شاب ورجل وأب وداعية وشجاع وحكيم .. إنه بشر رائع .

وفى المدينة المنورة بحث عن الشيخ إبراهيم العياشى . وهو أعلم علماء المدينة بأثارها . أريد أن أجلس إليه أن أسمع منه . وكان الرجل مريضاً .. فأخزني ذلك .. وأسفت له . واعتذرت ولكنه أصر . فلم يخرج من بيته وقتاً طويلاً . ووجدنا فرصة ليشم هواء متعشا .

- قل يا شيخ إبراهيم : أريد أن أعرف بالضبط من أين دخل الرسول المدينة المنورة .. كيف . وماذا فعل يوماً يوماً . ومن الذين قابلهم وما الذى أكله وشربه . وأين صلى . وما الذى كان يرتديه وما الذى قاه ؟

وقال الشيخ إبراهيم وهو لا يقوى على أن ينطق أو يحرك عنقه : أفعل إن شاء الله !

وعند أطراف المدينة . قال . من هنا دخل الرسول .. وهما أقام بعض الوقت . واستقبله أقارب أمه من أسرة بنى النجار .. وغنوا له والطبول فى أيديهم : طلع البدر علينا .. وفى هذا المكان وعلى هذه الصخرة وقف رجل يهودى يصرخ قائلاً :

جاء حظكم .. جاء الذى كنتم تنتظرون ..

وهنا انطلقت ناقة الرسول .. وهنا بركت .. وأقيم أول مسجد .. وهنا صلى ..

وظل الشيخ إبراهيم العياشى يتتبع من مكان إلى آخر .. ويقول : هنا بالضبط كانت معركة أحد .. هنا هو الجبل .. وهنا كانت معركة اخدق .. وهنا كانت بيوت اليهود .. وحللتهم .. وهنا ونحت هذا الشارع المرصوف كانت قوات المسلمين .. وعند هذه البئر كان يقف الرسول ويحثهم على الجهاد .. ونحت هذه العارة تماماً وقف اليهود يحاولون أن يجدوا وسيلة للتغلب على قوات المسلمين ..

يقول : لقد أمضيت عشرين عاماً أحقق في موقعة بدر .. وحققها على الخريطة ولكن حظى الأسود أوقع هذه الخريطة في يد زوجتي فأحرقها وكتباً أخرى .. ومن يومها وأنا لا أقوى على الكلام أو الحركة ..

قلت له : إنها زوجة سقراط يا شيخ إبراهيم .. هى أيضاً كانت لاتراه بين تلاميذه حتى تجدها مناسبة لاحتقاره وتذكيره أنه لا يعمل وأنه عالة على الناس .. وأنه يمضى وقته يناقش الناس .. ويرسم لها خريطة الحياة المثل .. بينما هو لا يملك قرشاً ولا منصباً ولا يدري إن كانت زوجته قد حملت منه أو من غيره .. أو كان زوجاً أو كانت له زوجة .. ثم تصب عليه الماء القذر لعل الماء يمسح الكلام من لسانه ومن آذان الناس .. ولكن الماء لم يفعل شيئاً ، ولا الزوجة فعلت شيئاً .. إنها بقيت زمراً لضيق أفق الروحة وتعامية الفلاسفة والعلماء حتى بعثت زوجة سقراط مرة أخرى في ثياب زوجتك !

ولو كان عندنا في القاهرة بعض هذه الأمكنة لجعنا القاهرة في المقام الثانى بعد الكعبة ! ..

فالناس هنا في القاهرة يتراحمون على قبر الحسين وقبر السيدة زينب ، ونحن نعلم أنهما لم يدفنا في القاهرة .. ولكن لو قال أحد ما أقول فلن يصدقه أحد .. ولكن مع ذلك لا أرى ضرراً في زيارة هذه الأمكنة وغيرها ما دامت تريح الناس .. فالراحة شىء عسير المثال ! ..

وليس هنا شيئاً كثيراً في جانب من قصة حياة يتييم عبقري .. بعد شهر من ولادته مات أبوه في المدينة .. وبعد ست سنوات ماتت أمه في مكة .. وبعد ثلاث سنوات مات حده عبد المطلب .. ثم جاءت سيرته الكريمة وأخلاقه الفريدة فجعلته يتما مرة رابعة .. الناس على شكل وهو على شاكلة أخرى ..

وترفع عن الناس وارتفع ومازال يعلو جبل حراء .. ويستقر في غار .. وينتظر حتى جاءت السماء بكل ما فيها من نور وحكمة لنهاية كل الناس ..

كان الأرض ارتفعت فأصبحت جبلاً ..

الجبل لما ارتفع بالرسول .. فإن الرسول قد ارتفع به ..

كان الغار حصن من حجر ..

كانه «رحم» الكون كله .. والرسول وليد السماء والأرض ..

أو هدية السماء إلى الأرض ..

وسواء بقى الغار مفتوحاً أو مسدوداً في وجه الهواء أو الشمس أو الناس .. فاللعن أبى والمكان أشرف والعماء المتواضع جدا يسأوى أضعافه من المعانى الإنسانية ..

لا شىء يغير من معنى المكان وصاحب المكان ..

وقديماً احترقت الكعبة وانهدمت مرتين .. وبقيت الكعبة بمنابها ومعناها ..

وبعد ذلك أحرق المسجد النبوى مرتين .. ونهدم وجاءت صواعق السماء

نحوه تحت الأمطار إلى ركاب .. ولكن بقى المكان وصاحب المسجد وصاحب
القبر : رسول الله وإلى جواره أبو بكر وعمر ..

وليلة من سنة ٧٥٧ هـ صاح السلطان نور الدين زنكي من نومه في حالة من
الفرع فقد رأى رسول الله في نومه يشير إلى اثنين من الغريب ويقول له
اتجلبى ! .. انقضى من هذين !

رسول الله يقولها للسلطان ؟!

وروى السلطان على حاشيته ما رأى .

وسأهم : ما العمل ؟

قالوا : نذهب إلى المدينة المنورة ..

وسافروا . وطلب السلطان من حاكم المدينة أن يأتيه بأسماء سكانها جميعاً .
وأن يدعوهم لتحية السلطان . ووقف السلطان يتفحص وجوه الناس حتى لم يبق
أحد . وسأل السلطان : ألم يبق في المدينة أحد لم أره ؟ قالوا : بل هناك رجلان
غريبان من أطيب الناس خلقاً وأكرمهم وأرحمهم .. إنهما يتصدقان على
الناس . وإتياهما بصليلان الليل والنهار !

وطلب السلطان أن يأتوا بهما . وجاءوا بهما . ووجد السلطان أنهما اللذان
رآهما في نومه . وأمسك بهما . وقتل بيتهما . فوجد على الأرض بساطاً . رفع
البساط فوجد تحته برداً طويلاً . واعترف الرجلان أنها كاهنان من المغرب .
وأنها تقاضيا مبلغاً كبيراً من المال ليخطفوا جثة الرسول . وضح الناس . وحوكم
الرجلان . وأعدموا .

وأمر السلطان بأن يحاط قبر الرسول بجدران من الرصاص حتى لا تمتد إليه
يد شريفة ..

وشاء الله أن يحصى رسوله حياً وميتاً . وأن يبق المبادئ الرفيعة لتكون كل
مدينة منورة وكل سيرة له عطرة ، وكل طريق إليه ومنه إلى خير وسلام
الناس - آمين

المحتويات

الصفحة

أيام في الأراضي المقدسة	٥
أريد.. ولكني لا أستطيع	٧
خطوة قصيرة في طريق طويل	١٥
وذاب الشمع الذي وضعته في أذن	٣٢
من بعيد جداً ثأني مياه الأمطار والأنهار	٦٩
صورة رسمتها وعتت عليها قد غيرتها	٩٤
صفاء عقل وانسراح صدر ووضوح رؤية	١١٧
كان بعيداً عن الناس وأسمى منهم	١٣٧
ثأني الثنين إذهما في الغار	١٤٥

٧

رقم الإيداع : ١٦٥٩

١٦٥٧ - ١٦٥٨ - ١٦٥٩

مطابع النشرو